فلاسفة يونانيون

العصر الأول

تأليف

الدكتور جعفر آل ياسين

دكتوراه في الفلسفة من جامعة اكسفورد

استاذ الفلسفة المساعد بجامعة

بغداد

الطبعة الاولى

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة الارشاد ـ بغداد
١٩٧١

الأهداء

الى الزهرات العبقة في حياتي :

زوجتي ..

وولدي بلسم وحيدر

وابنتي لقاء ونعماء

أهدى عصارة فكر وعناء قلب

ذكرى ، ومحبة ، ووفاء

ج . ي

تصدير

يشتمل هذا البحث على دراسة للفلسفة اليونانية في عصرها الاول الذي يتحدد بما قبل سقراط الحكيم ، اعتبارا من بداية القرن السادس قبل الميلاد وحتى منتصف الخامس منه ، حيث ظهرت سمات هذا الفكر متمثلة بالفلسفات الطبيعية ، فكان لها من المنجزات في هذا الحقل ما دهش له الفكر الانساني مئين عددا ، وما زال محط التقدير والاعجاب لدى الانسان المعاصر .

ولقد ارتسمت معالم هذا الابداع الاصيل في الاهتمام البالغ الذي سلّطه الفكر اليوناني نحو الكون المحيط بالانسان ونظامه ومشكلات الحياة العامة المتعلقة بالمعرفة والاخلاق . فكانت فلسفته تلك عنصرا من عناصر الحياة الحضارية ، ودلالة عميقة على التقدم والتطور ، حاول من خلالها تنسيق صورة صادقة لروح الشعب وطبيعته ، محددا نظرته الشاملة المبرءة من شوائب الاساطير والشعبذات الدينية ، سالكاً في تحقيق هدفه هذا طريقا عملياً ونظرياً معا ، بحيث أدّى به هذا النتاج الفكري الى تثبيت حرية الفرد واستقلاله عن التأثيرات اللاشعورية التي كانت تتحكم فيه . فاشاد الفلسفة على انها (مواقف) عملية للحياة يتميز فيها الافراد وتنتظمها الجماعات . وسلك في التعبير عن تلك المواقف مسالك رائعة حقا ، تحمل اسلوبا شعريا تارة ونثريا اخرى يشبه الى حد كبير عملية الفنان الاصيل سواء بسواء !

وفي الصفحات التاليات تصوير لهذه البواكير النامية ، حاولت جهدي ان اقدمها للقارىء بسبيل موضوعي خالص ، معتمداً في ذلك اطارها

التطوري العام •

وبودي الاشارة الى أن هذه الدراسة انجزت خلال المرحلة التي قضيتها معاراً من جامعة بغداد الى جامعة الكويت مشاركا زملائي في بناء جيلها الفلسفي العتيد ، الذي ارجو له ولمؤسستة الثقافية كل خير ونجاح •

والله ولي التوفيق •

حزيران ١٩٧٠ جعفر آل ياسين

المقدمة

١ ـ لكل حضارة سماتها ، ولكل انسـان ـ أي انسان ـ أن يتأثر بروح عصره فينصهر واياها في بودقة واحدة تظهر صورها متميزة بطابـع تلك الحضارة • ومهما اراد الباحث تجنب هذا التأثر والتأثير عاد بحثـه يفتقر الى الاصالة والحركة والمعنى • لان الفكر الانساني لا نعرف حدوده ، ولا يسبر غوره وتستكشف مكنوناته ما لم نربطه بمصدره الذي نبع عنه • ومن هنا سواء أكان المفكر فيلسوفا أم سياسيا أم فنانا فهو نبع حضارته ونبت زمانها • ولا يصدق هذا الامر على حضارة دون اخرى بل هو مقياس شامل للدراسات الانسانية في شتى ضروبها والوانها •

والفكر الفلسفي ـ وهو النموذج الاول للحيـاة العقليـة ـ لم تؤد الدراسات التاريخية نحوه التزاماتها الا في العصـور المتأخرة حيث ادرك الباحثون أهمية المعرفة الفيلولوجية للنصوص ومدى ارتباط المذاهب الفلسفية بعضها بالبعض الآخر • فظهرت على اعقاب ذلك ابحاث قيّمة في هذا الباب كان لبعضها مجال كبير في الاجتهاد والتحوير مما اثار اوجها متباينة نحو المشكلة التاريخية في دراسة الفكر على اختلاف آزمنته • فاعتمد قسم من الباحثين دراسة الافكار في اطارها الحضاري الخاص بها ، واعتمد آخرون على تجريد المرحلة من قيمتهـا الحضـارية وانصب اهتمامهم عـلى الافكار فحسب •• ولكل من الطريقتين مميزاتها وصعوباتها ولكننا لا نشك ان السبيل الاول الذي يعتمد فيه على الدراسات الفيلولوجية مرتبطة بحضارتها اكثر نفعا واعمق جدوى في النتائج والاسباب من السبيل الثاني •• ولسـنا نقصد من وراء هذا الموقف عوْدا أو اتباعا لمنهجية اوغست كونت في دراسة التاريخ من حيث انه وحدة متكاملة متطورة لها مراحلها الثلاث ، وانما نميل الى الاخذ بنظرية (التحليل) لا (التركيب) في الدراسات التاريخية وذلك التزاما بالواقع الذي نلمســه وما نلحظ فيه من التباين الحـاد بين المذاهب الفلسفية على الرغم من أن غاية الفكر ترتسم وكأنها واحدة لدى العصور كافـة •

ومن ظواهر هـذا التأثر بروح العصر ــ أي عصر ــ ما يدركه الباحث في الفكر الفلسفي من سمات الانطباع بصور العقائد الدينية المختلفة التي تظهر آثارها على الفكر الانساني جليـة المعالم مطلع هـذا القرن • ولكن جوانب هذا التأثر قـد تختلف حدة ، وتتباين سـبيلا وهدفا • فمثلا لدى اليونان كان التأثر بالعقيدة مصدره ارادة الفيلسوف بالذات ونعني بذلك أن ليس هناك التزام عقائدي على الفكر ، فالاختيار مصدره اذن الانسان اليوناني ذاته ، بينا اختلف الموقف لدى الفلسفات الانسانية التي ظهرت بعد قيـام الاديان المنزلة حيث يلحظ جانب الالتزام المباشر أو غير المباشر • والعصـر الوسيط يساق نموذجا لما نقوله عن العقيدة واثرها على الفكر •

وفي هذا المجال يمكن القول ان للتفكير الفلسفي علاقة وثيقة جـدا بالدين ، أو بالاحرى ان الفلسفة نشـأت في صورة نقد فكري للمعتقدات الدينية والاخلاقية ، وظلت دائما معنية بهذا النوع من النقد ــ على ان يشمل هذا النقد منهجية التحليل الواعي لطرق التفكير والصياغه الواعيه لنظرة كونية بحيث تظهر أوجه هذا التأمل في مشكلات مجردة تبحث عن التجربة والمعرفة والحقيقة والله والطبيعة والعقل[1] • ومن هنا فالتفكير الفلسفي يقوم بمهمتين احداهما تحليلية والاخرى تركيبية تأملية •

والواقع الذي يلمسه الباحث هو ان فكرة النقد هذه هي التي تميز الفلسفة عن العلم بمعناها الدقيق • فالمعرفة الفلسفية لا تختلف في جوهرهـا عن المعرفة العلمية ، فليس هناك من ينبوع تغترف منه الفلسفة ولا يغترف منه العلم • والنتائج التي تهتدي اليها الفلسفة لا تختلف في الاسـاس عن تلك التي يحصل عليهـا العلم ، ولكن المميزة الفارقـة لها عن العلم هي ــ كما اشـرنا ــ فكرة النقد البنـاء من جهة ، ودراسـاتها للكون كوحدة متماسكة مترابطة من جهة اخرى • يضاف الى ذلك أن موضـوع العلم يخضع للأقيسة العامة التي لا دخل للمزاج الشخصي فيها ، بينا الفلسـفة

تنهض موضوعاتها على الحكم الذاتي لكل انسان في نطاق تفكيره الخاص . فهي بهذا الاعتبار تجربة ذاتية تنطلق من دائرة الانسان الفرد وتتعامل دوماً مـع العلم في الحكم على مناهجـه .. يقول الفيلسـوف البريطاني ألفرد هوايتهيد[٢] ان من شأن العلم والفلسفة أن يتبادلا النقد وان يمدّ كل منهما الآخر بالمواد الخصبة التي تسمح له بالتقدم ، وفي الوقت الذي نرى ان المذاهب الفلسفية تقوم بمهمة توضيح الحقيقة الملموسة التي يجردها العلم ، نرى العلوم تتخذ مبادئها من الوقائع الملموسة التي يقدمها المذهب الفلسفي ، وليس تاريخ الفكر سوى القصة التي تروى لنا مدى نجاح هذا المشـروع المشترك أو فشله ... فالفلسفة في رأي هوايتهيد تنحصر في تكوين اطار متماسك منطقي ضروري من الافكار العامة التي تسـمح لنا بأن نفسـر كل عنصر من عناصر تجربتنا ونستعرض الاشياء البادية الممتزجة بالذات .

وهـذا النقد لا يختلف عن غيره من النقود الا في كونـه يحاول أن يذهب الى ابعد منها وان يتابع الفحص منهجياً . لان الفحص الناقد القائم عـلى التحليل والتأمل لا يتيسـر لفكر بدائي لا يدرك المشـكلة وعمقها . فالفلسفة اذن حكم يصدره العقل على الاشياء ولا يحمل صفة المشـاركة في الاحكام الاخرى الا باعتبار انه صادر عن تأمل عقلي دقيق .. فالانسـان الاديب مثلا قد يتفحص قطعة من الشعر فيحكي لنا أوجه الجمال فيها أو أوجه الدمامة في ألفاظها ومعانيها ، فهو ناقد لا ريب في نقده ، ولكن الفلسفة تذهب الى سبيل اعمق من هذا السبيل ، فهي لا تكتفي بهذه الخطوة فحسب، بل تندفع نحو تأمل تحليلي بعيد الغور يظهر لنا صور الحكم لا النتـائج النهائية له . وليس من واجبـها ان تحدد موقفها نحو الاشـياء فذلك امر لا تحاوله في مرحلتها النقدية على اقل تقدير ، وان صحّت محاولتها له فان موضوع فحصها ـ لا منهجها ـ سيعود آخر الشوط امراً مستقلا عنها في حقول علمية اخرى كما ظهر اسـتقلال العلوم الانسـانية عن حظيرتهـا الفلسفية الاولى .

والمشكلات التي تتفحصها الفلسفة ليست بالجديدة ابداً بل هي نبع قديم للتجربة الانسانية تعاود اسئلتها عنها بروح عتيد يساير حضارة العصر • ولكن سبيل فحصها لهذه المشكلات هو ما يؤدى الى طبعها بطابع النقد التحليلي لتلك التجارب ، وهو حقا ما يمثل تيارها وما يمثل جوهر التيار من عصر الى عصر وبين أمة الى اخرها •

ولقد ظهرت طرق النقد هذه متباينة في صورها واطوارها فتارة ارتبطت بعنصر الكون وجوهره وعالم الحس ومصدره ، وتارة اخذت وجهه نظر خاصة تتعلق بالحياة ومفهومها وهل ان الحياة جديرة بان يهتم الانسان بها أم انها فاقدة للجدوى والنفع ! • ومن خلال هذه الاستفسارات جميعها نعود الفلسفة في نهاية مرحلتها تسجل خلوصها التام لمنهجها النقدي المفضل الذي اشرنا اليه •• فهي – في شتى ظروفها ومذاهبها – تتفق على المضمون الاسمى للفكر الانساني ، وان كان هناك ثمة خلاف ففي لغة الاداء • وكل تلك الغايات تلتقي مع الانسان لترتفع به نحو حياة افضل ونظر ادق واستقراء أرحب ••• ولسنا نتخلف في هذا الموقف قول ديكارت من انه ليس في نطاق الفلسفة امر واحد ليس موضعا للخلاف حتى اليوم ! حقا ما يقوله ديكارت فالتباين واضح في المنهج وتطبيقه طالما الفلسفة تحاول جاهدة ايجاد حلول شافية للمشكلات الانسانية على صعيديها العام والخاص ، وليس في اجوبتها تلك ما هو نهائي لمشكلات الكون •

فنجدها مثلا في العصور الحديثة استقلت عن محتواها الذي كانت تتظمنه في عهد الافلاطونية والمشائية ، وبدت تحصر مضمونها في مجال خاص فسحت فيه لموضوعاتها القديمة ان تسلك مسلكا خاصا بها ظهرت على اثره كعلوم مستقلة عنها لا تربطها واياها وشيجة من الوشائج ! • فهي اذن نبع العلوم كلها ، عنها تحدرت وبمنهجها نمت وبسبيلها تؤكد وجودها العقلي في الحياة • وليست هي بعلم من تلك العلوم لأن طابعها الاصيل هو

التغيّر الدائم في نظرتها للوجود ، بله هو عدم اليقين بالذات • وعن سبيل هذا التغيّر برزت المدارس الفكرية قديمها وحديثها ، مثاليها وواقعيها ، وضعيها ووجوديها • ولكل من تلك الاتجاهات محتوى خاص ، فان اختلف في المضمون بقي على اصالته : نقد تحليلي للعقل وتأمل للوجود والحياة باوسع معانيهما • فخطورتها اذن متأتية من موضوعاتها التأملية وما يستتبع هذا التأمل من انطلاق في العقل تظهر سماته على العمل والوجدان معا •

٢ ـ ونحن لا نشك ـ بادىء ذى بدء ـ ان الفلسفة كمصطلح محدد المعالم ظهر على يد اليونان ولم يكن له من قبل سبيل في المعاجم اللغوية حتى عصر هومر وهزيود[٣] • فلقد استعمل اللفظ خلال فترتهما خاليا من مصطلحه التركيبي ، وكان يحمل معنى الفن أو الصناعة الفنية ، ثم دمج معناه بالعلم فكان يطلق على كل مجهود عقلي وعملي كصناعة الشعر والملاحة والتجارة • ونعت المؤرخ المعروف هيرودوتس يومذاك كل حاذق لاية صناعة باسم (سوفوس) • ويروى لنا هو نفسه حكاية المصطلح فيقول : « ان كريسوس آخر ملوك ليديا قال لصولون الحكيم لقد سمعت انك سحت كثيرا من البلدان متفلسفا بغية المعرفة والنظر » ـ فظهر المصطلح في عبارة هيرودوتس يحمل معنى جديدا هو التركيب من جهة الاشتقاق ، والبحث النظري من جهة الموضوع •

وقيل ان فيثاغورس اول من نعت نفسه (فيلسوفا) وتروى عنه حكاية فحواها انه قابل مرة في بيلوبونيز أحد اصدقائه فسأله عمّا يصنع هناك فرد عليه لا عمل لي هنا ، أنا فيلسوف فحسب ! • قال الصديق فما معنى هذه الكلمة؟ فاجابه فيثاغورس ان حياتنا الحسية هذه تشبه الى حد كبير اجتماعات الالعاب الاولمبية فقد يوجد في هذا الاجتماع اناس يبحثون عن الفخر والمجد ، وآخرون يبحثون عن البيع والشراء ، وآخرون لا هدف لهم يشبه اولئك بل غايتهم انبل واسمى ، يحضر احدهم الاجتماع ليمتع النفس بجمال

الالعاب ليس غير ! وحياتنا الدنيا شبيهة بهذا الاجتماع • والقسم الثالث من اولئك نفر يحتقر اغراض الدنيا ويتوجه بكل قواه العقليه لمعرفة الطبيعة واسرار الكون ، وهذا النفر الاخير ما نسميهم بالفلاسفة ! •

وبدت الفلسفة تحمل مدلولها العتيد من حيث انها بحث في اصول الاشياء ومبادئها ، الى ان تسلّم مقاليدها سقراط الحكيم فاخذت على يديه مصطلحها الفني وارتبطت بنظرية المعرفة والاخلاق فابتعدت عن ذلك بحوثها عن الطبيعة الخالصة • وأكد هذا الجانب ايضا تلميذه افلاطون ، واضاف اليه جانبا آخر هو ان الفلسفة بحث في كنه الاشياء وحقائقها ، فاستوعب موضوعها الطبيعة وما وراءها ، وخصها بالبحث عن الحقائق الثابتة ماهياتها ومثلها • ثم برزت على يد تلميذه ارسطوطاليس آخذة صورة البحث في الوجود من حيث هو وجود واطلق عليها المعلم الاول اسم (الفلسفة الاولى) • وامتازت بحوثه بمنهجها العلمي الدقيق الذي ضمّ علوما شتى في الطبيعة والنفس والرياضة والالهيات والاخلاق والسياسة والشعر والخطابة •

وفي عهد الرواقية والابيقورية انحصرت مهمة الفلسفة في الانسان ذاته ونظامه الاجتماعي ووسائل اسعاده في هذه الحياة ، فاصطبغ موقفها بصبغة اخلاقية واضحة استقتها من ظروفها الاجتماعية والسياسية وتشرّب تيار المدرستين بروح عرفانية سلبية الوسائل والغايات •• ثم ظهرت المسيحية وفي ظهورها خفت هدير الفلسفة ، لانه لا يرتفع ولا يتكامل هذا الهدير في مجتمع يسوده القلق ويركبه التعصب والاضطراب ويغلبه الهوى •• ثم ظهرت في بداية القرن الرابع للميلاد تحمل سمة المنهج التركيبي (افلاطون وارسطو) ولكنها اختلفت في المدلول والهدف ، حيث انها حاولت التوفيق بين العقل والنقل بسبيل لا يتنافر موضوعه مع الوحي •

وقد تمثل هـذا الموقف في العصور الوسـطى عـلى يد الفلاسفة المسيحيين والاسلاميين على حد سواء ! وادى الامر اخيرا الى قيام صراع بين الفلسفة والدين كانت الغلبة فيه في كثير من الاحيان للعقيدة ومبادئها • وآثار ذلك الصراع واضحة بين الكنيسة والفكر الحر ، وفي المخاصمة التي حمل لواءها ابن الصلاح وابن تيمية وابن قيّم الجوزية وامثالهم في الشرق •

وبرز العصر الحديث بمعالمه الجديدة يحمل روحا انسانية انطلقت معبّرة عن فرديتها وذاتيتها تعبيرا قويا ضد حكم كنسي ظالم ، وفكر لاهوتي متعسف • واتجهت هذه النهضة الفكرية نحو فلسفة نقدية قامت على اساس من المعرفة ومشكلتها وحصرت اعمالها بالعقل دون سواه • ولكنها تباينت في منازع هذا النقد حسب اتجاهات مدارسها خاصة في الفترة المعاصـرة من القرن العشـرين • تمثل هـذا الموقف بوليم جيمس وديوى ومدرسـتهما البركماتية ، وبرجسون ونزعته الحيوية ، وشـــلر وهوسرل واتجاهاتهما الفنومنولوجية ، وجان بول سارتر وجبريل مارسل ونزعتهما الوجودية •

* * *

٣ ـ من الصعب حقا ان نحدد بدء زمنيا للتفكير الفلسفي طالما هـذا النوع من التساؤل عن الكون والانسان طرقته امم وشعوب شتى في الشـرق والغرب ، فهو واسع الحدود لا يضبطه ضابط من تاريخ • الاّ انه اغلب ما تنهض عليه الدراسات الحديثة هو اعتبار اليونان البناة الاوائل لهذا الصرح والقوّامين عليه • باعتبار انهم اخضعوه لصناعة منهجية مالوا بها نحو العلم والعلّية وضرورتهما ، بحيث عادت افكارهم تحمل حلولا لمشكلاتهم العقلية قد لا تختلف في النتائج عن الحلول الشرقية ، ولكنها تباين في السـبيل والوسيلة عنها تباينا واضحا تعددت جوانبه بتعدد جوانب الفكر الفلسـفي وطبيعتـه •

وقد يتساءل المرء ايضا عما تحمله تلك الافكار اليونانيه من اصالة وابداع ، وهل انها حصيلة عقولهم حقا ، أم هي نبع سواهم من الشرقيين نالوا هم بوساطته حرثهم وزرعهم ؟ ... يذهب بعض من الباحثين الغربيين الى التأكيد بأن الفلسفة اليونانية اصيله المنبت والمنبع ، فهي خلق وابداع لليونانيين انفسهم ، ولا اثر للشرق عليهم الا في جانب العقيده ومحتواها الاسطوري[٤] . ويميل الاستاذ برنت في مقدمة كتابه (فجر الفلسفة اليونانية) الى انكار وجود فلسفة لدى المصريين والبابليين ، ويرى انه ان كان في الشرق فلسفة فهي لدى الهنود فحسب ! ولكن لم يثبت انها أثرت على الفكر اليوناني لا من قريب ولا من بعيد[٥] . ويتصادى مع هذا الموقف الفيلسوف البريطاني المعاصر رسل .. .ويذهب فريق آخر من الباحثين الى التأكيد بان لافكار الشرقيين أثرا على افكار اليونان ، ولكن هذا الاثر يختلف شدة وحدة حسب ميل الباحثين اليه . فيرى مثلا هيرودوتس ان الحضارة والدين أتت اليونان عن طريق مصر . ويميل جورج سارتون الى ان ملحمه اليونان وليدة ابوين هما حضارة المصريين القدماء وثقافة البابليين ، ومن ازدواجهما ظهر طفل جديد كانت ملامح العبقرية واضحه في سماته ، ولا يمكن التنكر لاثر الابوين عليه[٦] . ويعتقد وولف ان التفكير العلمي والفلسفي مميزا عن التفكير الميثولوجي قد ظهر اول مره على الساحل الغربي لاسيا الصغرى ، وانه مدين بالكثير للنتائج العمليه التي وصلت اليها مصر والعراق ، وما يحتمل ان تكون قد قامت بـه امم شرقية اخرى[٧] . وبالاضافة الى ما ذكرنا من آراء السابقين فقد أكدت الاستكشافات العلمية الاخيرة اهمية العلوم الطبيعية والفلكية عند المصريين والبابليين . فقد عرف المصريون مثلا علم التشريح وطرق العلاج الطبي ، وعرف البابليون رصد الكواكب وحركاتها وعلة الخسوف والكسوف . وكلا الشعبين اشتهرا بالرياضيات والهندسة ، فاكتشف البابليون مثلا الاعداد الصم ، وكذلك الجذور وقيمتها التقريبية ، وعرفوا ايضا المعادلات المتجانسه . مما يدفع

الباحث الى الاعتقاد بان الرياضيات الشرقية كانت تحمل صفة التجربة والنظر معا . وليس في ذلك تنكر للعلم اليوناني ومداه الذي دلّ على عمقه واصالته .. ولسنا الآن بسبيل المباهلة بين الشرق والغرب ، فللفلسفة اليونانية قيمتها الزمنية الواضحة خاصة في بحثها عن حقائق الاشياء وواقعها . ولكن ليس من النصفة في شيء أن يتنكر الباحث للفلسفات الشرقية واثرها على تلك الافكار . والشرق واهله اول الامم التي برزت لديها العقيدة كظاهرة اجتماعية تحاول اثارة الصلة بين الكون والانسان ، وتمثلتها باوجهها المتعددة في تجربة أو دين ، وأثرت تلك النحل على سير الحضارات البشرية شرقيها وغربيها معا . فما قول طاليس مثلا في ان الماء اصل الحياة الاّ اقتباس من آراء حكماء مصر وبابل وأقاويل التوراة . وما رأى فيثاغورس في التناسخ الاّ تأثر بالفادية الهندية . وما نزوع افلاطون الى القول ان النفس والجسم جوهران متمايزان في الماهية والوجود الاّ صورة للبرهمية في القرن الخامس قبل الميلاد . وما ابتكار ارسطو للوسط الاخلاقي الاّ عود لما قاله كنفوشيوس في كتبه الخمسة ... ولكن فضل اليونان انهم هذّبوا الاصول ونسقوها وغلّبوا عليها صفة العلم وطلب المعرفة لذاتها اكثر مما كانت عليه لدى الشرقيين . بل أكدوا على جانب الوحدة بشكل لم يتيسر لغيرهم ، فظهرت لديهم النظريات القائمة على الدليل والبرهان . ومن هنا اعتبر اليونان البناة الاوائل لهذا الصرح الشامخ . وليس في هذا ضير يلحق الفلسفات الشرقية وما فيها من عمق تجريبي واسطوري ، وما واكب تلك المحاولات من فهم للصلات القائمة بين الكون والانسان كما اشرنا ... حقا ان الفرق بين الشرق والغرب في هذا المجال ان الاول اتخذ من الاسطورة ومدلولها غاية يستهدى بها السبيل ، بينا نجد الثاني اتخذها وسيلة لا تستوعب معانيه الاّ بطريق الرمز والايماء . ويمكن ان نضيف الى ذلك ان تأملية الشرق لم تكن ذات نتائج سلبية كما يدعي فرانكفورت(٨) بل دلالتها صوفية قد تبلغ حدود التجرد العقلي احيانا ، ولكنها تتلفع بسرابيل من الحكايات الاسطورية

كما ذكرنا سابقا .

* * * *

٤ ـ ومما يلحظه الباحث في تتبعاته للفكر اليوناني الأول ان التأثر الذي ربط هذا الفكر بحضارته حاول جاهدا ان ينطلق من دائرة عقله نحو الحكم على الطبيعة بشكل يندر مثيله في عصور حضارته المتقدمة . والمقصود بعبارة (حضـارته المتقدمة) تلك المدنيـة التي مثلتها مقاطعه كريت عـام (٢٥٠٠ ق.م) وسميت بحضارة مينوس ، وما امتازت به من تقدم كبير في الفن والتجارة والعلاقات الخارجية مع الدول القريبة منها خاصة بلاد النيل . وأُطلق على مجموع هذه المعالم الحضارية الراقية التي انتقلت عام (١٦٠٠) قبل الميلاد الى رقعة اليونان المحددة اسم (المدنية المسّينية) وهي آخر حلقه للحضارتين الكريتية والآخية التي تلقفها الشعب اليوناني الاصيل(٩) .

ولقد تنازعت الفكر اليوناني صورتان اولاهما علمية عقلية ، وثانيتهما صوفية عرفانية ، سارتا بخطين متوازيين على ما بينهما من تنافر وتباين . وكانت حصيلة الموقف الاول هي الغالبة كماً لا كيفاً خاصة في المرحلـه اليونانية المبكرة . وفي الصورتين ظلال عميقة المسارب تمثل جانباً كبيرا من نظرة الانسان نحو الكون ونحو ذاته وتبصرها . وتمتد تآليل هذه الصور الى عصر الشعراء اليونانيين المتجولين . وتبرز هنا شخصية الشاعر الخالد هومر(١٠) حيث تعتبر قصائده اقدم نص للفكر اليوناني الاصيل ، اسطنعته حضارة العصـر قاعدة متينة لانطلاقها . وقد تمثلت تلك القصائد بملحمتين عظيمتين هـما الالياذة والاوديسة ، وكانت الاولى منهما حديث حرب ممتع وعميق تصف لنا وقائع طروادة العسكرية (وهي احدى مقاطعات آسيا الصغرى) التي ترجع حدود ازمنتها الى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد .. واما الثانيـة فتعود الى اواخر القرن التاسع منه في اقرب الاحتمال ، وتغلب عليها روح المسالمة وتمتاز بطـابع الهدوء والوحدة الفنية ، وهي الاولى من نوعها في عالم الادب .

يتحدث هومر – في بدء ملحمته – عن الانسان والطبيعة والآلهة حديثا في جوانبه كثير من الطرافة والتحدي • فانتقاده للآلهة مثلا يشكل لنا صورة واضحة عن حرية الفرد في الاصحار عن رأيه • وحديثه عن آدمية هذه الآلهة وانها لا تختلف عن بني البشر الا بامتلاكها لهذا السائل الازرق الذي يجرى في عروقها فيمنحها الخلود والازلية – يعطينا هذا الموقف صورة للسيطرة على الخوف واضعاف روح المسالمة لدى الانسان • فالآلهة الاولمبية(١١) هنا تحب وتبغض ، تغازل وتعشق ، تمنح وتقبض ، حسب هواها ، ولكنها لا تمتلك سلطة عريضة على الانسان ، بل الانسان رهين (ضرورته) و (قدره) • يخضع لهذه الضرورة والقدر حتى (زيوس) كبير الآلهة •• فالطبيعة الهومرية اذن حيّة مريدة قادرة متخصصة لا دخل للآلهه بوجودها وبقائها •• وسترتسم ظلال هذا الموقف على آراء الفلاسفة الطبيعيين الاوائل وتصبح مهمازا لكثير من انعطافاتهم نحو العقل واستقراء قوانين الكون •

وفوق هذا وذاك كانت قصائد هومر سبيلا للاستظهار يتعلم اليوناني بوساطتها اللغة والادب ، ويتمتع باساطيرها وما تروى له من حكايات الحرب، وما تقصه عليه من حكايات هيلانه وآغا ممنون ، فتقف به على اعتاب حضارته القديمة موقفا تهتز له عواطفه هزة الخشية والرهبة والاعجاب ! •

ولم تقتصر هذه المرحلة من البواكير الادبية الاولى على هومر فحسب ، بل برز في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد شاعر جديد آخر هو هزيود(١٢) من سواحل آسيا الصغرى ايضا ، امتازت اشعاره بالروح التعليمية الحادة التي تبحث دائما عن الاشياء الحقيقية في الكون • وله قصيدتان تنسبان اليه تسمى الاولى (الاعمال والايام) وتضم حوالي (٨٢٨) بيتا من الشعر وتنقسم الى اربعة اقسام : الاول منها يختص بالوعظ والارشاد ، موجها الى اخيه الاصغر المدعو برسيس ، والثاني منها حديث عن الزراعة والملاحة

وقواعدهما . والثالث ينحو نحو المبادىء الاخلاقيه والدينية وتأثيراتهما على الناس . واما الرابع فهو تقويم يعتمد في تقسيم الايام الى سعيده ومشؤومه ، وهو موقف يحكي لنا طبيعة العصر الذي عبّر عنه هزيود بالتطير والحزن .

واما القصيدة الثانية فتسمى (اصل الآلهة أو انسابها) وبلغ ابياتهـا حدود (١٠٢٢) بيتا . وهي محاولة فريدة للكلام على نشأة الكون والآلهـه وتثبيت للعلّية في مسارها الطبيعي بحيث يؤدى به الى الاعتقـاد بان العالم (تخلّق) عن الآلهة الاولمبية وليس مخلوق من قبلها . وعلى الرغم من أن الآلهة لا تخضع لمفهوم المكان والزمان ، فهي التي دفعت الانسان الى البحث عن حقائق الاشـياء ومفاهيمهـا . يقول هزيود : « ان بنات زيوس العظيم قطعن عودا واعطينه لي ، غصنا متيثا من الزيتون ، غصنا عجيبا ، ثم نفثن فيه صـوتا قدسيا لاشيد بالاشياء التي سـتأتي وبالاشياء التي مضت في سـالف الزمان »[١٣] .

وانتهت حصيلة الانسان اليوناني من هذا الادب في القرن السادس قبل الميلاد الى نمو طبيعة الاتجاه الانساني نحو الحريه والانصحار عنها ، ومن ثمة ظهرت هذه المعالم في فلسفته التي تمثلت في الاتجاه الاول منها .

٥ ــ واما الصـورة الثانية التي تنازعت هـذا الفكر فهي في نسجها الباطنـي صـوفية عرفانية كما قلنـا ، كان لها أثرهـا البالغ في نفوس بعض الفلاسفة اليونانيين . ولم نعرف عنها تأريخا معينا سوى انها تحل سهض على الاساطير ، وامتاز بعضها بالتحدث عن الكون والخلق والانسان ومشـاكله الزمان ومسألة القضاء والقدر . وان اهم هذه المذاهب هي الديانه الديونيسية أو الباخية (نسبة الى باخوس اله الخمر) ، وديونيسوس اله من آلهه تراوبا في العصور الخوالي . ثم تطور المذهب في اعقاب السنين على يد (اورفيوس) من جزيرة كريت ــ بعد ان انتقلت الديانة الى بلاد اليونان ــ وهناك من يشك بطبيعة اورفيوس الالهية شكا يبلغ حدّ منحه الصفة الآدميه . ومهما

يكن نهو مؤسس (للاورفية) وهو لقب اطلق اصطلاحا على حواريه واصحابه من بعده •

وتمثلت في النحلة الجديدة وحدة الآلهة والكون ، دانعة بعيدا عنها فكرة التخصص والانفصال التي ظهرت في الهومرية • واقامت هذه الوحدة على نظام عادل يترتب صاعدا حتى يبلغ حال الاتحاد مع الله ، بذوق ووجد صوفيين عميقين يؤديان الى تناسق ازلي دائم بين جميع الكائنات الحيّة على السواء • وقد صورت الاورفية هذا الموقف بفكرة التناسخ بين الارواح ، بتبادل عجيب مدهش لا يتصوره العقل ، مع تثبيت واضح للنفس وخلودها بعد الموت، باعتبار ان الكون المحسوس ما هو الا سجن كبير وعقوبة مفروضة ومرفوضة : مفروضة لانها عقاب على الخطيئة التي اقترفتها النفس في عالمها السماوي الرفيع ، ومرفوضة لان هذه النفس تحاول جاهدة بكل وسائل التقشف والزهد والولاء ان ترتفع ثانية الى عالمها الذي صدرت عنه •

وموقف الاورفية هذا قد لا يتصادى والنظرة اليونانية الاصيلة للحياة والتي تتضمن بأن الانسان الواقعي هو الانسان الذي لا يقوم الفصل اساسا بين عقله وطبيعته ، بل هو مبدأ للحياة الحيّة لا ينضب ولا يغيض • أو بعبارة اخرى اننا لا نميّز فيه بين الموضوع والذات تمييزا ثنائيا •

ومهما يكن فقد ساعدت الاورفية الى حد كبير على اذكاء روح التعاطف الديني مع العقل ، فظهرت في الفكر اليوناني أطر جديدة احتذاها فيثاغورس وصاغها على احسن مثال افلاطون الكبير(١٤) •

وعند البحث عن الاصول الداخلية للفكر اليوناني نجد تلك الاصول وكأنها ترجع الى ينابيع ثلاثة اولها الدين ، وثانيهما الاخلاق ، وثالثهما السياسة • وكان للعاملين الاولين خطرهما الكبير في تكوين ذلك الموقف • فالنزعتان التي اشرت اليهما سابقا ساعدتا كثيرا على تنميته ، ومهدتا لظهور اتجاهين مختلفين (علمي) و (صوفي) سيطبعان الفكر اليوناني عدة قرون •

٦ – ومما يلحظه الباحث في دراسه موضوعات هـذا الدور الذي يسبق سقراط (وهو المقصود بقولنا العصر اليوناني الاول) ندرة المصادر وشحها ، ذلك لان الشذرات التي انتهت الينا لم تكن مسنودة للاستدلال على مواقف اصحابها استدلالا يقي الباحث من رأي مبتسر يتخذه ، او حكم متعسف يصدر عنه • فالنقلة القدماء لهذه الافكار هما ارسطوطاليس من جهة ، وتلميذه ثاوفراسطس من جهة اخرى ، حيث سجل الاخير اتجاهات الفلاسفة قبل سقراط في كتاب اسماه (آراء الطبيعيين) نحا فيه نحوا مشائيا ، ولم يصل الينا الا على شكل شذرات نظمها طبقا للمشكلات التاليه : الله ، النظـام الكوني ، الفلك ، العلوم النفسـية والاجتماعية • وعـلى الرغم من اهتمام ارسطو بجانب مناقشة آراء الطبيعيين فان ما يذكره عنهم اقرب الى روح الموضوعية من بعض المصادر الافلاطونية المعاصرة ••• ومن الاصول الاخرى التي يعتمد عليها في هذا المجال هي المخطوطات الرواقية ومدارسها المتجولـة • وكذلك مدونـات كليتوماخوس (القرن الثـاني قبل الميلاد) وديديموس في القرن الثالث بعد الميلاد •• وهناك مصدر له اهميته الواضحه هو مؤلف ابولودورس الذي تحدث فيه عن الطبيعيين الاوائل • وأتم انجازه في حدود (١٠٠) قبل الميلاد • يضاف الى ذلك الشروح والتفسيرات التي دونت قبل القرن الاول للميلاد وبعده ومن اهمهـا كتابـات اندرونيقوس والاسكندر الافروديسي وسيلقيوس وغيرهم • وقد ينتفع في هـذا السبيل ايضا بكتاب فلوطرخس (٤٦ – ١٢٠ م) المسمى (في الآراء الطبيعيه التي ترضى بها الفلاسفة)[١٥] ، وقد ترجمه الى العربية قسطا بن لوقا • واول ناشر له بلغته الاصيلة ديلز في (كتب الاقوال اليونانية) عام ١٨٧٩ • وقد اورد فيه مؤلفه آراء الطبيعيين مقتبسة من اعمال جون اينيوس احد المؤلفين البيزنطيين التي لخصها الاخير ولفقها عن مؤلف رواقي اقتبسها بدوره من افكار ثاوفراسطس السابق الذكر • ومهما يكن فان اعمال ثاوفراسطس في واقعها هي المصـدر الفرد لجميـع تلك المحاولات التي ظهرت من بعد •

ويبدو هذا الشح واضحا في الشذرات عند معرفتنا انها مثلا لا تزيد عن مائة قول ينسب لفيثاغورس وهرقليطس (يحتوى اطولها على خمس وخمسين كلمة) • ومائة وخمسين من الاسطر السداسية لقصائد بارمنيدس ، وحوالي ثلاثمائة واربعين لامبادوقليس ، وعن انكساغوراس حوالي عشرين شذرة تصل الى ما يقرب من الف كلمة ، وعن ديمقريطس حوالي ثلاثمائة شذرة اكثرها ذات طابع اخلاقي • وليس في الشذرات ما يوضح بشكل دقيق سلامة منهجها ، ومن هنا كان الحكم على تلك الفترة يفتقر الى دقة متناهية في الموضوعية قد لا تتأتى بيسر وسهولة للباحثين •

وعلى الرغم من هذا النزر القليل من اقاويلهم المنسوبة اليهم ، فان الفلاسفة قبل سقراط اوضحوا مشكلات عدة كانت تشغل الفكر الانساني مئين من السنين لم يجد لها حلا علميا الا على ايدي اولئك النفر من الطبيعيين الذين ربطوا بين المعرفة النظرية للعالم وبين تلك المشكلات ربطا عمليا فادمجوا الفلسفة بالعلم • وتصوروا الاشياء حية قادرة مريدة تنبض بالحركة ظاهرا وباطنا ، لا تستحدث ولا تفنى ، تجمعها الوحدة ، وتفرقها الكثرة ، خاضعة لعوامل التغيّر والصيرورة في الطبيعة • ومن هنا يمكن القول ان الانسان اليوناني الاول انصب اهتمامه بادىء الامر على البحث في طبيعة الكون ونظامه دون سائر المشكلات الانسانية الاخرى • ولم يقتصر عمله على النظر في الطبيعة ومحتواها فحسب ، بل تدارس ايضا ظواهرها المتعددة وحاول تفسيرها بما لديه من معارف وحكايات وخيال ، وانتهى به المطاف الى اعتماد قانون من الحتمية يساوق قانونه في الاحادية سواء بسواء •

والسبيل الرئيس لموقف الانسان اليوناني نحو الطبيعة يمكن حصره في الحدود التالية :

(أ) الاتجاه الواحدي الذي تبنى وحدة مادة الكون مفسرا بسبيلها وجود الاشياء وتباينها •

(ب) الاتجاه الرياضي ـ الصوفي واعتماده العدد اساسا في تفسيره [illegible] الحياة كلا وجزءا •

(ج) الاتجاه الوجودي الذي حاول الاخذ بوحده كونيه معينه اسناد عليها بناء العالم ونظامه •

(د) الاتجـاه نحو التوفيق أو الجمـع بين الوحدة والكثره وبين التغير والثبات •

(هـ) الاتجـاه الآلي أو عالم الذرة وفلسـفتها ، وهو انعطـاف علمي بحت ارتسمت معالمه في آراء الذريين وانصارهم •

تلك هي أهم منازع الفكر اليوناني الاول ، سنحاول عرضها ملتزمين الجانب الحضاري والذاتي في تقييم الافكار ، مستتبعين في ذلك ربط الفكر بحضـارته.لانه نتاجهـا ، بل هو حصـيلة الصـراع القـائم بين الذات والخارج(١٦) •

فَلاسِفَة الطّبيعَة الأوائِل

طاليس ـ أنكسيمندريس ـ انكسيمانس

طاليس الملطي(١٧) (٦٢٤ ـ ٥٤٦ ق٠م) :

٧ ـ يعتبر اول الفلاسفة الطبيعيين ٠ يذكر اسمه غالبا تحت قائمة الحكماء السبعة الذين يذكرهم افلاطون في محاورة بروتاغوراس(١٨) ٠ يميل المؤرخ هيرودوتس الى اعتباره فينيقيا ٠ عاصر في حياته صولون الحكيم، وقد عرف عنه ميله نحو العلم والسياسة والرياضة والفلك ٠ وقيل انه اول من نادى بفكرة الاتحاد بين الايونيين لصد خطر الفرس المحيق بهم ٠ وذكر عنه أنه حوّل مجرى نهر هاليس لكي تعبره جيوش كرسيوس لمقاتلة عدوها ٠ ويروى عنه ايضا انه أول مبتكر لمعرفة ارتفاع الجسم القائم من قياس ظله ٠ ولعله استقى معظم اصوله الرياضية من مصر حيث ارتحل اليها ودرس على يد علمائها ، وكذلك بما حصل عليه من البابليين ومعرفتهم لعلم الفلك والهندسة ، بحيث ولدت فيه هذه الاصول روحا علمية ابعدته عن ميثولوجية عصره وجعلت منه اول الفلكيين والرياضيين في بلاد ايونيا ٠ ولسنا نعلم بالتأكيد صحة ما ينسب اليه من القول انه ذهب الى ان قطر الدائرة يقسمها الى قسمين متساويين ، وان زاويتي المثلث المتساوى الساقين متساويتان، وانه اذا تقاطع مستقيمان فالزاويتان المتقابلتان بالرأس متساويتان٠ واقاويله هذه تبدو وكأن اصولها بابلية أو مصرية معا ، فاستفاد هو في الواقع منهجهم في البحث فاضيفت اليه ايضا ٠

وشهرة طاليس تعتمد تاريخيا على انبائه بكسوف الشمس الكلي الذي حدث في ٢٨ مايس عام ٥٨٥ قبل الميلاد كما يحكي ذلك هيرودوتس ـ في الفترة التي وقعت فيها الحرب بين الليديين والفرس ! ٠٠ وليس لهذه الشهرة مجال الاعتقاد بها اليوم ، لان معرفة طاليس الفلكية لم تبلغه حد ادراك العلة الخفية للكسوف خاصة وهو يدعي ان الارض عبارة عن قرص طاف على سطح البحر ! ٠ وحتى لو فرضنا صحة ما ينسب اليه في هذا

المجال فان طاليس لا يملك قصب السبق في الموضوع لان البابليين اكتشفوا الدورة الفلكية والكواكب السيارة قبل طاليس ، ولا شك انه اطلع على مدوناتهم تلك ، واستفاد منها نتائجها فطبقها في بلاده .

يحدثنا ارسطو عن قدرته العملية فيقول : « ان طاليس كان يعرف بمهارته وخبرته بالنجوم أن محصول الزيتون في العام المقبل سيكون وفيرا . وترتب على ذلك انه اقتصد قليلا من المال دفعه تأمينا لاستغلال جميع معاصر الزيتون في خيوس وملطية لحسابه . وقد تمكن من الحصول على العطاء بسعر زهيد اذ لم يكن هناك من له من بعد النظر ما يمكنه من ان يعرض سعرا اعلى . وما ان حلّ وقت الحصاد واشتدت الحاجة الى معاصر كثيرة دفعة واحدة حتى أجّرهم بالسعر الذي ارتضاه ! . ولم يفعل هذا لانه كان يحب المال وانما لانه اراد ان يثبت ان الفلاسفة في وسعهم ان يكونوا اغنياء ان هم رغبوا في ذلك ، اما هدفهم الاصيل فهو جمع الحكمة لا الثروة ! » .

٨ ـ واهمية طاليس الفلسفية متأتية عن قوله (بالاحاديه) وارجاعها الى عنصر واحد هو الماء ، حيث حاول ان يثير التساؤل عن اصل الحياة والوجود فردّه الى شيء واحد دون اعتماده على اساطير عصره وخرافاته ، بل اعتمد على التأمل والحدس وهو خطوة تقدمية نحو العلم اخضعها طاليس للادراك الحسي . ولسنا نعرف السبب الحقيقي الذي دفع به الى اختيار الماء دون سائر العناصر الاخرى ، الاّ اللهم ان ندعي ان قصة الطوفان لعبت دورا كبيرا في تفكيره حيث عادت الحياة على الارض وكأنها نبت عن الماء من جديد ، يضاف الى هذا ما كان عليه وضع مدينته ملطية الجغرافي وحاجتها الى مدّ البحر وجزره . ويذهب ارسطو الى تبرير موقفه بسبيل حدسي مدعيا ان طاليس كان يرى ان النبات والحيوان كلاهما يغتذيان بالرطوبه ومبدأ الرطوبة الماء ، وما منه يغتذى الشيء فهو يتكون عنه بالضرورة(١٩) . فنظرته الى طبيعة العالم تؤدى الى تحديد اهميته وخطورته بالنسبه للفكر

الانساني لذا عدّ بنظر ارسطو (فيلسوفا) • بينا لاجدّة للعنصر الذي اختار •

وروى عنه انه مال الى ان العالم مليء بالآلهة أو الانفس[٢٠] وهي نزعة هومرية قديمة اثارت نحوا من الاعتقاد بان الانسان اليوناني وضع روحا شاملة في كل جزء من اجزاء الكون • أو بالاحرى وحدة وجود عامة لا تستند في واقعها الى حامل فرد له صفة الكيان الخاص ، لان طاليس لم يفرّق في الواقع بين الروح بمعناها الادراكي وبين (الشبح) الذي اشار اليه هومر في قصائده[٢١] •

وتاريخ الفكر ضنين جدا بما يحدثنا به عن طاليس وحياتـه ، ولان الرجل لم يدون شيئاً بقلمه بل سجل افكاره بعض حواريه ، وليس في هذا النزر اليسير ما يغني غناء شاملا لمعرفة مذهبه بالتفصيل • ولكن يكفيه فخرا انه جمع في نظرته وتسائله بين العلم والفلسفة في آن واحد ، ومن هنا عدّ الاب الاول للفكر العلمي عند اليونان •

* * *

انكسيمندريس (٦١٠ ــ ٥٤٥ ق•م) :

٩ ــ معاصر لطاليس ، ينحدر عن عائلة معروفة في ملطية ، تميّز تفكيره العلمي بالدقة والحصافة والشمول ، واشتهر بمعرفة واسعة بالفلك والجغرافيا • تعتبره بعض المصادر التاريخية انه اول مدون للفلسفة باسلوب شعري ، بله اول مؤلف فيها حيث ينسب اليه بحث (في الطبيعة) لم يبق منه الاّ نزر يسير • وتضاف الى مهاراته استعماله لآلة المزولة ، ولعلـه اقتبسها من البابليين ، ولكنه حسّنها كما يروى ذلك هيرودوتس • وكان الغرض منها معرفة طول الظل باختلاف اوقات النهار ، وكذلك الفصـول الاربعة والزوال والغروب وطول الليل والنهار •

وينسب اليه عمل اول خارطـة للدنيا جعل فيهـا اليونان في المركز

وتحيطها اجزاء من اوربا وآسيا ثم يحتضنها المحيط الواسع •

١٠ ـ رفض انكسيمندريس موقف طاليس في اختيـاره المـاء اصـلا للاشياء ، ولكنـه أيده في فكرة المـادة الواحدة واسـماها (اللانهائي) أو الابيرون والأبيرون ـ في ظاهرة الكون العام ـ مزيج من الاضداد كالحار والبارد واليابس والرطب ، ويمتاز بالسرمدية ، وعنه تكون الاشياء فترتد الى العنصر الذي نشأت منه ، كما جرى بذلك القضاء والقدر • فهي ـ أعني الاشياء ـ تعوّض بعضها بعضا ويرضي بعضها بعضا • فاشياء الكون تنشأ عن هـذا (اللانهائي) بعملية الانفصال • والانفصال هنا لا يفسر الا تفسيرا ديناميكيا بغية تبرير عمليته القاصدة • وعند ذاك نعتبر (الابيرون) مبدأ اوليا ، فكأنه هو نفسه سبب الانفصال المباشر الذي ادى الى نشأة الكون • فبحركة المادة تنفصل الاشياء بعضها عن بعض وتجتمع بعضها الى بعض • والابيرون في بدء الامر كل متجانس لا يوصف بكم نهائي ولا بكيف محدد • ثم تظهر لنا صور الانفصال ، واولها البارد أو الرطب وهو في المركز ، ثم تغلفه دائـره الهواء فدائرة اللهب ثم دائرة النار • وبفضل هذه الحركة الانفصاليه الخالده تحدث العوالم والكائنات •• ويبدو لنا الكون في هذا الموقف وكأنه نتيجـة لصراع بين الاضداد على ان تسود هذا الصـراع فكرة العداله متمثله في التوازن الطبيعي بين الاشياء ، أو بمعنى آخر عدم تجاوز النسب التي يترتب عليها وجود الكائن من حيث ان الوجود بحدّ ذاته خطيئة ، والتكفير عنـه هو فناء عوالم ومجيء اخرى الى غير نهاية • ويظهر الاتجاه في المذهب وكأنه صورة لقصة الخطيئة من جهة ، وصدى لمواقف هومر وهزيود نحو الكون من جهة اخرى •

١١ ـ ومن طريف ما تبناه الرجل اعتقاده بان الكائنات الحيه نشـأت عن الرطوبة وانها في اصولها الاولى كانت محوطة بالصـدف والقشـور كالاسماك سواء بسواء ! • وعندما حلّت على اليابسة رمت بقشورها تلك ثم

تكيفت حسب محيطها الجديد ، وكان منها الانسان القائم ! • أو بالاحرى كان الانسان تطورا عضويا لتلك النظرية • وما اشبه هذا الموقف ــ على سذاجته ــ بنزعات اصحاب نظرية النشوء والارتقاء كدارون ولابلاس وغيرهما ، خاصة ما يتعلق منه بنظرية ايجاد العالم ، وبنظرية تولد الاعضاء الحيّة •

اما شكل الارض فهو اسطواني مسطح القمة نسبة ارتفاعه الى عرضه كنسبة ١ : ٣ وهي ثابتة في وسط الفضاء تبعد ابعادا متساوية عن الكواكب التي تحيطها ، وباحاطتها المتساوية في المسافة تبقى الارض ثابتة في مكانها دون ان تنزلق الى اعلى أو أسفل • وكان يميل الى ان حجم الارض والشمس متساويان ، وتارة يرى ان الشمس اكبر منها بسبع وعشرين مرة •• وهكذا يبدو ان موقفه يمتاز بدقة علمية تفوق معاصره طاليس •

انكسيمانس (٥٨٥ ــ ٥٢٨ ق•م) :

١٢ ــ هو ثالث الثلاثة ، وتلميذ لانكسيمندريس • ظهر وازدهر في الفترة التي خضعت خلالها سارديس وايونيا لسلطان الفرس • اهتم به ثاوفراسطس وخصّه بابحاث واسعة سجلها عنه عند تدوينه آراء الفلاسفة الطبيعين قبل سقراط •• قدّم لنا افكاره باسلوب شعري كصاحبه من قبل ، ولم يبق من اشعاره الا النزر القليل • يعتبر تاريخيا المكتشف لفكرة التكاثف والتخلخل التي لعبت دورا مهما في الفكر القديم •

١٣ ــ اعاد فكرة الاحادية الثابتة من جديد ، فبدل الماء الذي ارجع اليه طاليس الاشياء ، ادّعى ان المبدأ الرئيس هو الهواء باعتبار ان الجوهر الاول واحد لا نهائي ، محدد الكيف ، منه نشأت الاشياء الموجودة والتي كانت والتي ستكون ، ومنه ايضا نشأت الآلهة وتفرعت باقي الاشياء • والهواء المعني هنا هو اصل الاشياء ، يحمل ذات التعادل في الاضداد الذي فرضه انكسيمندريس في الابيرون سابقا • والفرق بينهما ان الاول لا متعين ، بينا

الثاني سمي بالتعين هواء • وهذا الهواء يتخذ بحركته الصور المختلفة للتكاثف والتخلخل فيصبح مرئيا : ففي تمدده يصبح نارا ، وعند تلبده يصبح سحابا ، وعند تكاثفه الشديد يستحيل ماء ، واذا تكاثف الماء اصبح ارضا ، واذا زاد تكاثفه اصبح صخرا • فالهواء هنا صورة للعلاقة القائمة بين الكثافة والحرارة « يختلف من حيث رقته وكثافته باختلاف طبيعة الاشياء »[٢٢] • وهذا الاتجاه الجديد يعبر في حقيقته عن خطوة عمليه لها شأنها وخطورتها في تطور العقل اليوناني نحو الآلية واعتبارها وافيه الغرض في شرح أسباب وجود الاشياء المختلفة ، بحيث ترد الاختلافات الكيفيه في الاشياء الى اختلافات كميّة في ظل قانون لا حيدة عنه هو « التكاثف والتخلخل » •

واتخذ انكسيمانس الهواء اصلا بسبب ما لحظه من اهمية استنشاقه من قبل الكائنات الحيّة • فلم يفرّق بين الهواء وبين الروح Pneume ووصفه بانه الطف الاجسام غير مرئي وحركته علّة تحوله فقال : « فكما ان النفس فينا هو مبدأ كياننا ووحدتنا فكذلك الهواء يحوى العالم كله » • فهو في حقيقته شيء لا يعدو (النفس) الذي يستنشقه الانسان وهو حي ويخرجه في النهاية عند الموت ومن هنا فالسبب في أنّي أعي لأنني استطيع ان اعيد تزويد جهازي بشحنات متجددة من الهواء والعكس بالعكس ، فشخصيتي لا تستند الى حامل فرد له صفة الكيان الحقيقي الدائم •

واذا قيست فكرة التكوين التي اعتمدت الهواء اصلا من بُعْد آخر ظهر لنا أن نسبة الكثافة الى السرعة تسير سيرا عكسيا ، بمعنى آخر ان الاشياء كلما زادت كثافتها كلما قلت سرعتها • واما الهواء في حد ذاته فهو يمثل الحد المطلق بين طرفي التخلخل والتكاثف • وكذلك الامر بالنسبة للحرارة تسير سيرا عكسيا مطردا ، ولذلك اعتبر اليونان النار أشد العناصر حرارة لرقة كثافتها •

١٤ ـ تصور انكسيمانس الارض قرصا مستديرا معلقا في الهواء وكذلك الشمس وسائر الكواكب • وادرك ان للنجوم فلكا تدور فيه دوران القبعة حول الرأس • وذهب الى ان القمر يستمد ضياءه من الشمس • واقتبس من الشرقيين فكرة الكسوف والخسوف مدعيا بان كواكب معتمة هي سبب حدوثهما •

وهكذا يبدو ان الاتجاه الجديد اكثر تقدمية من سابقيه ، واعني بذلك انه ادرك فكرة التحول أو التغيّر مفسرا اياها بالكثافة والتخلخل ومحددا لجوهرها الاصيل بعنصر (الهواء) •

وقد أثرت اراؤه على الفلاسفة المتأخرين من بعده فنظرية فيثاغورس عن العالم اقرب الى افكار انكسيمانس منها الى افكار معاصريه • وكذلك بعض اتجاهات انكساغوراس وديمقريطس وديوجينس لها وشائج واضحة مع افكاره • لذا اعتبر مذهبه كمالا للمدرسة الايونية وموقفها من العلم الطبيعي ، خاصة بما قدمته من القول بوحدة الوجود الثابتة ، وبما انتهت اليه من ذكر للعناصر الاربعة دون تحديد دقيق لها ، وبما امتازت به من غلبة النظرة العلمية والواقعية على صور الشعبذة والاساطير •

فَلاسِفَة العَدَد والتغيّر

فيثاغورس ـ هرقليطس

فيثاغورس (٥٧٢ ـ ٤٩٧ ق٠م) :

١٥ ـ يبدأ مع ظهور فيثاغورس تيار جديد في الفكر اليوناني يتسم بمعالم صوفية بحت ويمتاز بانسجام تام في المذهب مع تحرر في الاتجاهات الفردية عن علاقاتها الخارجية ، مصحوبا بمحاولة ربط كيانها بعناصر الفرد الباطنية العميقة ، حيث عاد الانسجام وكأنه رابطة القربى بين الاشياء الحية كافة ٠ يستمد كل مقوماته الاصيلة من الديانة الاورفية ، سالكا فيها نهجا عقليا واخلاقيا معا ٠٠ ويعد فيثاغورس واضع الصرح الاساس للمذهب ونظرياته وان لم يثبت انه دوّن بنفسه شيئاً من آرائه ٠ والتاريخ العام ضنين في حديثه عن حياة مؤسسه الاول ضنّة نحسبها متعمدة احيانا ، وفي احيان اخرى تظهر الروايات عنه وكأنها مشوبة بالخرافات والاعاجيب ! ٠ وفي كلتا الحالتين تعود معرفة فيثاغورس على حقيقته صعبة المنال ٠ وعلى الرغم مما نلمس من اثره البالغ على الفكر الانساني سواء في تصوفه أو رياضته ، فهو ـ كما يصفه رسل ـ مزيج من (انيشتين) و (مسزادى) ٠٠ أسس ديانة أهم اتجاه فيها هو مذهب تاسخ الارواح من جهة ، ومراقبة الدولة واحكامها من جهة اخرى(٢٣) ٠

ولد فيثاغورس ـ على اكبر الظن ـ بجزيرة ساموس ، وعاصر حكم الطاغية المشهور بوليقراطيس ، ثم هجر بلده الاول هربا من حاكم المدينة الذي سام اهلها سوء العذاب ، فذهب الى ملطية ثم فينقيا ومن ثم الى بلد الفراعنة فمكث في ظلاله فترة من الزمن درس خلالها الفلك والهندسة واسرار اللاهوت ٠ ثم طوّف حول العالم البابلي فتعلم هناك طرقا اخرى لعلم الحساب والموسيقى واطلع على طقوس المجوس ٠ ثم عاد الى ساموس وكان في الخامسة والستين من العمر ٠ وبعدها رحل الى ديلوس وكريت حتى بلغ كروتون(٢٤) ٠٠ ويشوب رحلاته هذه شكوك تاريخية خاصة فيما يرتبط منها بهجرته الى مصر وبابل ٠

اسس في مدينة كروتون في جنوب ايطاليا مدرسته المعروفة فكانت نبراسا انار السبيل امام الكثيرين من فلاسفة تلك الحقبة ، بما امتازت به من نظام تربوي دقيق ومنهج عقلي رفيع • وقد حاولت المدرسة ان تدفع بتعاليمها الى الناس متمثلة بشخصية (معلمها) فيثاغورس ، هادفة الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي معا •• ولكن الامر انتهى بمقلب على المدرسة ذاتها حيث احرقت وتلامذتها احياء ! ولم ينجو منهم الا اثنان هما ارخيبوس وليسيس • اما فيثاغورس فكان قد رحل الى ميتابونتيوم قبل وقوع النكبة ومات عام ٤٩٧ قبل الميلاد •

ومما يذكر عنه انه بالغ في وصف شخصيته فمما ينسب اليه قوله : « ان هنالك اناسا ، وهنالك آلهة ، كما ان هنالك كائنات مثل فيثاغورس لا هم من هؤلاء ولا اولئك •• » وتدل هذه الحكاية على الاثر الاسطوري الذي لحق شخصية الرجل خاصة بعد وفاته حيث عاد وكأنه ولي من الاولياء[٢٥] !•

وتذكر له بعض المصنفات وكلها منحول النسبة اليه باعتبار انه لم يدون – كصاحبه طاليس – شيئاً من شذراته • يضاف الى هذا أن المدرسة من الناحية التاريخية لم تتميز بشخصية متعينة بل اندمجت آراؤها بعضها ببعض بشكل يصعب معه التمييز الواضح بين افرادها حتى فيثاغورس ذاته ! • ولكن يجب الحذر ايضا من الاعتماد على اقوال الفيثاغوريات الجديدة لما يشوب تلك الآراء من انتحال ظاهر مفتعل[٢٦] •

لقد عاشت المدرسة في ظل نظام صارم ، كان من مظاهره حرمان النفس عن كثير من مظاهر الحياة حرمانا قاسيا لا يعرف مأتاه الا بسر من اسرار المذهب الغامضة ، وقد انحصر هذا التقشف بخمس عشرة قاعدة اجملناها في التعليقات[٢٧] •

وفتحت الجمعية صدرها للجنسين ، فهم اخوة متحابون تجمعهم فكرة الوحدة ، ويضمهم الوجود المشترك ، وتربطهم رابطة العمل ، من حيث ان

المذهب وسيلة وغاية معا • نطهارة النفس اصل من اصوله يستتبعها زهد ووجد وعرفان[٢٨] وترفع عن الملكية الخاصة وترويض للنفس على الشجاعة والطاعة والايمان والنظام •• فاباحت الجمعية البياض من اللباس ، وحظروا على انفسهم اكل اللحوم ، وسمحوا للاعضاء بالسير حفاة الاقدام ! واكدوا أن العلم للجميع لا ينسب شيء منه الى علم من اعلامهم حتى فيثاغورس نفسه • واستحالت هذه الاعراف والتقاليد الى اصول عقائدية ثابتة في مذهبهم • ولم يكن اعضاء الجمعية على رتبة ودرجة واحدة ، فمنهم السمّاعون ، ومنهم من هو ارقى رتبة من اولئك ، ومنهم الخاصة المنتقون ، وهم اقرب روحا وعملا الى استاذهم الذي علمهم السر وفتح لهم السبيل •

يحدثنا الاستاذ برنت في كتابه (فجر الفلسفة اليونانية) بلسان الفيثاغورية فيقول[٢٩] : « نحن في هذا العالم غرباء ، والجسم هو مقبرة الروح ، ومع ذلك فلا يجوز لاحد منا ان يلتمس الفرار بالانتحار لاننا ملك الله هو راعينا ، وما لم تشأ لنا ارادته الفرار فلا حق لنا في تهيئته لانفسنا بانفسنا • والناس في هده الحياة ثلاثة ضروب تقابل الضروب الثلاثة من الناس الذين يفدون الى الالعاب الاولمبيه •• وخير الناس جميعا هم اولئك الذين جاءوا ينظرون الى ما يجرى وحسبهم ذلك • وعلى هذا فاعلى درجات التطهير النفسي هو العلم الذي لا يجعل الهوى اساسه • وان من يستطيع تكريس نفسه لذلك فهو الفيلسوف الحق الذي فك الاغلال التي تربطه بعجلة الميلاد » •

فتأملية فيثاغورس ، كما يبدو ، اصل رفيع من اصول العقيدة ، تنهض عليها قواعد المذهب في اتجاهيها الصوفي والرياضي معا ، باعتبار ان الرياضة ـ حسب ما كان يعتقد قديما ـ سبيل للمعرفة الحدسية العليا ، ترتفع على المحسوس المتغير ، وتوصل الانسان الى اليقين الثابت الذي لا يعلوه يقين • فهي المهيع الذي يقود الى مشارف المعرفة المتعالية فكرا وعملا ••• فالجمالية

في الرياضيات ـ سواء كان هذا العلم يتعامل مع الأعداد أو الاشكال الهندسية أو مع النظام ذاته ـ تنهض على يقينية هذه المعرفه التي اعتمدت السبيل الهندسي في حلّ معضلاتها الطبيعية نحو الكون ، على الرغم مما ادى اليه هذا الموقف عند القدماء من خلط عجيب بين مفاهيم الميتافيزيقيا والمعرفة معا بحيث أدمجوا الرياضة بالطبيعة ولم يستشعروا عمق الهوة بين الطرفين وتباين منهج العلمين •

ومهما يكن فالمدرسة الفيثاغورية كانت « طريقة في الحياة » بما يستتبع هذه الطريقة من ربط بالعقيدة والمعرفة معا ، امتدت طريقتها الى اربعة قرون من الزمان مثلّها رجال عديدون في جيل سابق ولاحق •

١٦ ـ لقد حاول مؤسس المدرسة ـ بادىء الامر ـ ان يتفحص المشكلة كما تفحصها السابقون من قبل متسائلا ما الوجود وما اصالته الحقيقية ؟ •• أهو ماء أم هواء أم شيء آخر غير هذا وذاك هو « اللامحدود اللامتناهي » ؟• ورجع عن تساءله ذاك الى تحديد الجواب (بالعدد) فحسب ! • ولكن كيف تم له هذا الرأي ؟ يبدو ان فيثاغورس نظر الى الوجود متمثلا بصورتين ذات وجه واحد : فالاشياء اما ان تكون اعدادا أو انها تحاكي العدد • وان هذه الاعداد لا تفارق الاشياء بل متحدة بها ، لذا فالعالم كله توافق نغم وعدد • فليس هناك فارق بين « المحاكاة » و « الذات » بالنسبة للمذهب •

ومن الصواب ان نفترض ان فيثاغورس اندفع نحو موقفه هذا بما لمسه من امكانية تحويل الاصوات الموسيقية الى اعداد • وبما ان هناك وشائج شبه بين الاشياء والاعداد ، فاذن من السليم ايضا ان نطبق هذا على الاشياء ذاتها، على ان لا ينجر هذا التطبيق على الاشياء بشكل كلي• ولكن المتأخرين من الفيثاغوريين عمموا الموقف وزادوا عليه بان وحدوا الاعداد مع الاشكال الهندسية وسموها (اعدادا) ايضا • يضاف الى ذلك ما لاحظته المدرسة من انسجام في حركات الكواكب وسيرها من جهة ، وبما ادخلت من عناصر

الموسيقى والسمعيات الصوتية في طقوسها من جهة اخرى ، بحيث حاولت ان تربط الاشياء كلها برباط هذا الانسجام ، وعند بحثها الطويل عن الاصل لم تر غير العدد مجالا يصدق عليه الانسجام صدقا حقيقيا •• وظهر هـذا الموقف من الناحية الطبيعية متمثلا بفكرة (البيراس) Limit الذي فسّرت الفيثاغورية بموجبه الاشياء ونشأتها ، أو بمعنى آخر فسـرت اللامحدود بسبيل المحدود وانه هو الذي يمنح الصورة المدركة • وهو موقف يدل على اصالتها وبراعتها ، وكانت له خطورته الواضحة على الفلسفة بشكل عام •

ثم اضافت الى رأيها السابق قولها ان الاعداد تمتاز بصفتين : الزوجية والفردية ، فنعتت الاولى باللامحدود ، ووصفت الثانية بالمحدود ، لقبول الاولى صفة القسمة وعدم جواز العكس • وجرّها هذا الرأي الى تأكيد التعارض بين هذين المبدأين ، وعن سبيلهما أبلغت المتقابلات الى عشـرة رتبتها على الشكل التالي :

المحدود واللامحدود ، الفردي والزوجي ، الواحد والكثير ، اليمين واليسار ، المستقيم والمنحني ، المذكر والمؤنث ، الثابت والمتحرك ، النـور والظلمة ، الخير والشر ، المربع والمستطيل •• ولا شك ان بعض هـذه المتقابلات لا يحمل تقابلا ذاتيا ، ولكن هدف الفيثاغورية ينحصر في نظريتها عن (الحد ـ البيراس) فكلما سيطر اللامحدود ظهر التقابل الذي هدفت اليه المدرسة •• فالاطراف المحدودة تكون اكثر ظهورا في الوجود العيني واصدق حقيقة من الاشياء غير المحدودة ، لان صورة الشيء لا تدرك الا عن هذا السبيل كما اشرنا •

ولكن ما هو الاصل في حقيقة هذه الاعداد ؟ أهي الوحدة أم الثنائية ؟ ان موقف الفيثاغورية في عصرها الاول يبدو اكثر ميلا الى الاحادية منه الى الثنائية • اما اصحاب الثنائية فهم طبقة الفرقة المتأخرة عن الجيل الاول[٣٠] •

وهل الاشياء بصورها وموادها هي العدد المكون لجوهرها ؟ أم هي

الصورة فحسب؟ يميل الاستاذ زيلر الى الرأى القائل بان الاعداد الفيثاغورية هي صورة وهيولى معا للاشياء ... والامر الذي يمكن التأكيد عليه هو ان موقف فيثاغورس يشمل بشكل عام كل الوجود المادي والمعنوي على السواء . ولولا هذا الشمول لعادت النظرية صعبة التبرير والتدليل وضعيفة الفحوى. فليس من النصفة اذن ان يشمل تفسيرنا للنظرية عالم الطبيعة فحسب ، على الرغم من ان المدرسة في تطبيقاتها لفكرة العدد اعتمدت على عناصر حسّية ومادية بسبب ما ادركت من الائتلاف بين الاشياء والاعداد .. وعند النظر الى المذهب بشكل ادق تبدو فكرة الائتلاف بين الاشياء والاعداد وكأنها المصدر الاصيل لهذا التطبيق في اصول النظرية بالذات .

ثم نجد ان المدرسة مالت الى الربط بين الشكل من جهة ، وبين العدد من جهة اخرى ، فاعطت للاعداد هيئات متماثلة : فالواحد نقطة ، والاثنين خط ، والثلاثة مثلث ، والاربعة مربع . واعدادهم ـ على الرغم من ان فيثاغورس وحّد بين الاعداد والاشكال الهندسية كما اشرنا ـ اعداد حسابية تعتبر اساسا للنظرية الخاصة بالاعداد في العصر الحاضر .. ولم يكن غرض الفيثاغورية رياضيا فحسب ، بل اضافت الى الاعداد صفات اخلاقية واجتماعية فالعدد سبعة يمثل وحدة الوقت الكاملة ، والعدد اربعة يمثل العدالة ، والعدد ثلاثة يمثل الزواج . ثم نعتوا العقل بالواحد واعطوا للاحادية المطلقة صفة الالوهية . وكان للعدد (١٠) Decat قدسية واضحة لديهم . فهو مثلث العدد اربعة المسمى التراكتيس الفيثاغوري ، وهو مجموع الاعداد الاولية (١ + ٢ + ٣ + ٤ = ١٠) . وتذكر لنا بعض المصادر انهم كانوا يقسمون به باعتبار انه الممثل للكون العام . ولعل هذه المناظرة في قدسية هذا العدد تظهر مبرراتها عند عكسها على عناصر الكون الاربعه ، حيث تستأثر هذه العناصر بكل مقومات الوجود عند الاغريق . وعند تغليب فكرة

(الوحدة العددية) على هذا الموقف يعود الامر ـ بعد ضم الاعداد بعضها الى بعض ـ ان العدد عشرة مصدر كل جوهر حادث بل اصله كما يحلو للفيثاغورية أن تقول ! .

وتنسب لفيثاغورس ومدرسته عدة نظريات هندسية بعضها يعود لـه وبعضـها الآخر يرجع الى عصـر متأخر عنه . ومن اهم هـذه النظريات النظرية الخاصة بالمثلثات قائمة الزوايا التي منطوقها ان مجموع المربعين القائمين على الضلعين المجاورين للزاوية القائمة يساوى المربع القائم عـلى الضلع الثالث وهو وتر المثلث ، أي $٣^٢ + ٤^٢ = ٥^٢$. ولسنا نجزم ان فيثاغورس اول من اهتدى الى هذه النظرية ، فان البابليين حسب الاستكشافات الحديثة وجدت لديهم النظرية مدونة على رُقَم الطين . ونضل فيتاغورس اذن هو البرهنة على النظرية فحسب ! .. ولكن شاء سوء الحظ ـ كمـا يقول رسـل ـ[٣١] ان تؤدى نظرية فيثاغورس الى نتيجة مباشـرة وهي الكشف عن الاطوال التي يستحيل قياسها ، وهو كشف يهدم فلسفته كلها ! يقول اللورد رسل ما يلي :

« في المثلث القائم الزاوية المتساوى يكون المربع المقام على الوتر ضعف المربع المقام على اي من الضلعين الآخرين . فافرض ان طول كل ضلع من اضلاع المثلث بوصة واحدة ، فكم يكون طول الوتر ؟ افرض ان طول الوتر هو $\frac{م}{ن}$ من البوصات ، اذن $\frac{م^٢}{ن^٢} = ٢$ ، فاذا كان هنالك مضاعف مشترك بين م ، ن فاقسمها عليه فيكون اما م أو ن عددا فرديا . ولما كانت $م^٢ = ٢ ن^٢$ كانت $م^٢$ عدداً زوجيا وكانت بالتالي م عددا زوجيا كذلك ، ويكون ن على ذلك عدداً فرديا . ثم افرض ان م = ٢ب ، اذن $٤ب^٢ = ٢ن^٢$ واذن $ن^٢ = ٢ب^٢$ ، واذن تكون ن عدداً زوجيا وهو عكس المطلوب . فليس هناك

اذن كسر ـــــ قياسا لطول الوتر • هذا التدليل يبرهن على انه مهما تكن الوحدة الطولية التي تتخذها فستجد ان هناك ابعادا ليس بينها وبين تلك الوحدة الطولية نسبة عددية مضبوطة ، بمعنى انك لن تجد عددين م ، ن بحيث اذا كررنا ذلك البعد المعيّن عدد م من المرات كان مساويا للوحدة الطولية عدد ن من المرات » •

وكذلك ليس من اليسير الحكم على فيثاغورس انه استعمل الحروف في تدليله على النظرية لان الاعداد الحرفية لم تكن متداولة في عصره[٣٢] • بل برهن عليها برسم الخطوط على الرمل واستعمال الحصى ، واستعان بالنظام العشرى الذي استعمله المصريون من قبل •

١٧ ـ اضافت الفيثاغورية الى مذهبها افكارا طريفة في الموسيقى والفلك والطب ، كانت تنهض كلها على قاعدة (الانسجام) و (النغم) • فمثلا يعدّ فيثاغورس أول مكتشف للاوتار المنتظمة التي تتناسب أطوالها فتحدث اصواتا مؤتلفة ، أو بالاحرى انه المبتكر للسلّم الموسيقي ، بمعنى ان اختلاف النغمة تابع لاختلاف طول الوتر • وقاده هذا الموقف الى معرفة الوسط التوافقي harmonic analogia وحدوده الثلاثة : « بحيث تكون زيادة الاول عن الثاني بالنسبة الى الاول ، هي زيادة الثاني عن الثالث بالنسبة الى الثالث »[٣٤] • معتمدا في موقفه هذا على التناسق الرياضي بالذات •

اما بالنسبة الى الفلك والطبيعة فقد ادعت المدرسة ان العالم حادث وليس قديما ، ورتبته على الوجه التالي : السماء الاولى ، فالكواكب الخمسة ، ثم الشمس والقمر والارض المقابلة Antichthon وكلها تدور حول نار مركزية هي (بيت زيوس) لانها كرية الشكل ، ومجموعها عشرة باعتبار كمالها وانتظامها ، يبعد بعضها عن البعض الآخر مسافات متناسقة ، تصدر عنها انغام عذبة موسيقية تسحر الالباب ! وتتحرك حركة هادفة كما تتحرك

عقارب الساعة سواء بسواء • اما عالم ما تحت فلك القمر فانه يخضع للكون والفساد وللتغيّر والاضمحلال ، ويقطنه الناس من جهته العليا فقط •

ولا شك ان الآراء الفلكية الفيثاغورية تمثل تطورا طبيعيا لنظريات انكسيمندريس على الرغم من انها ذهبت في تفسيراتها ابعد مدى من السابقين، ففكرة كرية الارض استكشاف فيثاغورى خالص ـ وهو ما يفترق به عن الفلسفة الايونية ، وفي غير هذا فنظرته نحو العالم هي نظرتهم جملة وتفصيلا •

وامتازت المدرسة بتعاليم الطب ، وكان اتجاههم في العلاج نفسيا من جهة ، وماديا من جهة اخرى ، فاستعانوا بالموسيقى في الجانب الاول ، وبالاعشاب والنباتات في الجانب الثاني ـ وغلّبوا فكرة التناسب بين الاضداد في التعاليم بحيث عاد مبدأ الحياة الحار ملطفا بالبارد ، فاذا اختلت النسبة بينهما كان المرض • وكان المقصود عندهم بالبارد هو الهواء الخارجي الذي اشار اليه انكسيمانس ••• وكانت مدينة كروتون اشهر مراكز الجمعية في الطب ، ومن اعلامها المبرزين ألقيمون الحكيم من تلاميذ مؤسس المدرسة ومؤلف الرسالة المعروفة « في الطبيعة » ، وأول من حاول اجراء عملية جراحية في العين ، وممن زعموا ان المخ هو مركز الاحساس وان هناك طرقا أو منافذ بين هذا المركز واعضاء الحس(٣٤) •

١٨ ـ واخيرا فالفيثاغورية مدرسة تعددت جوانب معرفتها بحيث امتد اثرها الواسع عبر القرون وحتى العصور المتأخرة • ويمكن ملاحظة سماتها الخاصة في بارمنيدس وسقراط وافلاطون وارسطوبله في اوغسطين وديكارت وسبينوزا وكانت ••• ولسنا بمبالغين اذا قلنا ان الرياضيات الفيثاغورية هي المهماز الذي ولج اليه جل الفلاسفة الروحيون ملتمسين فيه سبيلهم اللاحب الذي ينتهي بهم نحو قاعدة التجريد التي هي اسمى قواعد المعرفة اليقينية في رأي القدماء • ولم يقتصر تأثير المدرسة على اولئك

فحسب بل امتد وبشكل جديد الى غاليلو وكبلر والفيزياء الرياضية متمثلة بنيوتن وحتى العصر الحديث[٣٥] .

* * *

هرقليطس(٣٦) **(حوالي ٥٤٤ ـ ٤٨٤ ق.م) :**

١٩ ـ حكيم من أفسوس اشهر المدن الايونية الاثنتى عشرة . ينحدر من عائلة ارستقراطية كانت تتوارث الكهانة العظمى ابا عن جد حتى استلم هو مقاليد ذلك المنصب الرفيع ثم تنازل عنه لاخيه ! ولعل سبب تخليه عنه هو ان يتخلص من علائق المجتمع وقيود الدين الشعبي كي ينطلق حرا مع نفسه يساجلها الرأي والاختبار ، وليبتعد عن عالم جل اهله لا يعرفون كيف يسمعون ولا كيف يتكلمون F. 6 .. وساعد على هذا الاتجاه طبيعته المتعالية التي كانت لا ترتضي بالسهل اليسير من الحياة ولا تقتنع بالحلول الوسطى ، بل تتجه نحو اصعبها موقفا واشدها غموضا . ومن هنا قيل عنه ان طموحه وتعاليه دفعه في فترة من فترات حياته الى المطالبة بعرش بلاده من الامير المغتصب ميلانكوماس ، لانه كان يرى في نفسه القدرة على القيام باعباء الحكم السياسي في وطنه .

وكان ينعى على المفكرين المعاصرين له اشتغالهم بالعلوم الجزئية لانها لا تثقف العقل ، لذا اتجه هو نحو الرمزية والتشبيه ، وخاصة في كتابه الموسوم (حول الكون) الذي قسمه الى ثلاثة مباحث اولها في الكون وثانيها في السياسة والاخلاق وثالثها في اللاهوت[٣٧] . والكتاب كما يصفه مؤلفه نفسه فيقول : « انه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه ولكنه يشير اليه » . وواضح ان في عبارته دلالة اعتراف بصعوبة الكتاب ، لذا وصف مؤلفه بالفيلسوف الغامض ، ولم يصل من فصوله سوى مئة وثلاثين شذرة فحسب[٣٨] .

ويقف الباحثون ـ قديما وحديثا ـ مواقف متباينة تجاه هذا الغموض

المبهم الذي يعتور شذرات الرجل • ويمكن حصر الموارد التاريخية لهذا الموقف في ست نقاط[٣٩] :

(١) يذهب ارسطو الى ان صعوبة النص متأتية عن خطأ في وضع علامات الترقيم •

(٢) يرى ثاوفراسطس ان اضطراب الكتاب وتناقضه انما جاء من اختلال عقل صاحبه ! ••

(٣) ويدعي الاستاذ برنت ان العصر الذي عاش فيه هرقليطس وما ساده من حروب كان يقتضي اتباع ذلك الاسلوب لغلبة روح العزلة على الفلاسفة ••

(٤) ويفسر الاستاذ زيلر غموضه بانه كان عميق الرأي جاد الفكر شديد الازدراء لاعمال معاصريه وآرائهم ، فآثر العزلة واختط طريقا مستقلا في التفكير سلك فيه نحو الايجاز وضرب الامثال ، وهذا الايجاز هو سر الغموض •

(٥) ويعتقد الاستاذ ييجر الى ان هرقليطس ابتكر اسلوبا فلسفيا عظيم الاثر من حيث أنه ساطع في معناه وعبارته وزاخر بالحكم ، ولم يصل الينا كاملا ومن هنا كان الحكم عليه صعبا •

(٦) وتميل السيدة فريمان ان غموضه يرجع الى اسلوبه لا الى عجز القراء عن الفهم ، وانه تعمد ذلك كي لا يتداول الكتاب الا خاصة الناس من المتعلمين •

ومهما يكن فالكتاب ـ بفصوله النزرة ـ مبتسر المعنى ، غامض الاسلوب ، كثير المجاز • ومن هنا فنحن اكثر ميلا الى الاخذ بالفقرة الرابعة والخامسة معا ، لما فيها من دقة وعمق في تفسير اسباب هذا الغموض ومأتاه • مع العلم ان محاولة اضعاف روح المشاركة الاجتماعية عند الرجل ـ كما

يحاول بعض الباحثين اضفاءها عليه ـ لا نجد لها مبررا كافيا في موافف هرقليطس بالذات • فغضبه مثلا على دستور أفسوس لما فيه من نعسف وتحكم في الرعية ، وحثه لمواطنيه على مقارعة الفرس كي يرجعوا لهم اميرهم هرمودورس الذي طرده دارا من حاضرة ملكه • كل اولئك يشير بوضوح الى انه كان يشعر بمشاركة عميقة بمآسي مجتمعه وظلمه واضطهاده • وليس في هذا ضير أي ضير اذا ظهرت شخصيته في الجانب الآخر متسربلة بالخيلاء وكبر النفس والتعالي على من هو دونها • فحوادث التاريخ تسجل لنا امثلة متشابهة لما نقول : فافلاطون مثلا كان يؤمن ايمانا صريحا في الطبقية الاجتماعية والفردية على السواء ! ولكنه على الرغم من ذلك أقام الفلسفة واشادها على قاعدة المشاركة الاجتماعية ، بله غايته منها لم تكن غير قيام الحكم السياسي العادل في بلاده •• فأي ضير اذن ان يجمع هرقليطس الموقفين معا ، ويصدر عنهما صدورا تلقائيا كما اراد هو لا كما يريد المتحدثون عنه •

ونزوعه نحو الفردية لم يكن ـ كما نعتقد ـ انحرافا في الشخصيه بل على العكس كان وازعا نفسيا ايجابيا يؤكد الذات ومحورها الذي تنطلق عنه • فعمله ككاهن لا يساعد لا من قريب ولا من بعيد على تحقيق ما يصبو اليه من آمال • فقومه ناس لم يكن احدهم يفقه أبسط سبل العقيدة السائدة عصر ذاك ، بل كانوا يقدسون الاصنام التي لا تسمع ولا تعطي ولا تمنع (fr. 26) •• فما هو السبيل اذن الى اصلاحهم ؟ •• انه الثورة على تلك القيم المنحرفة المنافية للعقيدة الروحية الخالصة • وعن هذا السبيل كان خروجه على المجتمع واعرافه ، وكان عزوفه عن المنصب الرفيع • وليس في ذلك ما يدعو الى القول انه انحراف أو سلبية في العلاج الذي اراد هرقليطس • فالمحاولة لديه تمثلت بتجربة نفسية قاسية ، ليس من السهل ان تتأتى تأتيها لرجال السياسة أو القادة مثلا ممن يمارسون جانبا واحدا من الحياة فحسب ! ••

فكان هرقليطس امينا كل الامانة على قاعدته التي صحر بها طيلة حياته وهي : « ان طريقتي ان اميز كل شيء طبقا لطبيعته ، وان اصنفه طبقا لفعله » • فلم يجد في نفسه الا سبيلا واحدا يؤدى به الى قاعدة التمييز والتصنيف هذه ، ألا وهو ان يستبطن ذاته ليستنطق العقل بالحكمة التي يريد والرأى الذي يختار • فتغلبت عليه عند ذاك طبيعة الكيف على طبيعة الكم لانها اجدى نفعا وفعلا في الحياة : « ان شخصا واحدا افضل من عشرة آلاف اذا كان أفضلهم » •• « لذا وجب على اهل أفسوس ان يهبوا جميعا للموت لانهم رضوا بنفي اميرهم افضل رجال المدينة » • ان هذه الشذرات تعبّر بصدق عن المنحنى الذاتي لشخصية هرقليطس الحكيم • وانه في اعتماده على استنطاق العقل يبدو وكأنه أبعد ظنية الاحتمال عن المعرفة التي يهدف اليها ، لانها صادقة كل الصدق وشاملة لكي شيء •• لذلك نجده يتوجه باللائمة الى الشعر والشعراء (متمثلين بهومر وهزيود) وينتقد تصرفات الكهنة من رجال الدين اولئك الذين يرتكبون المخازى باسم العقيدة (fr. 127) • بل لم يكتف باولئك فبالغ في تقريعه فذكر بالهزء فيثاغورس واكسانوفان وغيرهما • ولكنه على الرغم من جفوته هذه فانه لم يدّع ان استنطاق العقل عملية ينحصر قيامها في شخصه فحسب ! بل هي ما يجب على جميع الناس محاولته : « ان الحكمة شيء واحد هي معرفة الفكر الذي لديه من القوة ما يحرّك جميع الاشياء في الكل ، فالتفكير عام للجميع ، لذا يجب ان نتبع العام ، ولو ان الكثيرين يعيشون كأنما لديهم حكمتهم • » (fr. 19) •

واخيرا اصطبغ موقفه ــ بعد ان لمس استحالة تحقق التقدم العقلي الذي يريد ــ بنحو من التشاؤم والطيرة نُعت بسببهما بالفيلسوف الباكي ! •

٢٠ ــ تنهض فلسفة هرقليطس ــ بادىء ذي بدء ــ على قاعدة التغيّر الدائم في الاشياء : « انت لا تنزل النهر الواحد مرتين لأن مياها جديدة

تجرى من حولك ابدا » (fr. 41) • وهـذا يمثل ظاهر المذهب لديسه لا حقيقته • فالتغير عبارة عن « مجاهدة » تمتاز بها كل الاشياء من حيث انها في صيرورة مستمرة ، والثبات هو ثبات هذا التصيّر • فالمدرسة الايونية لم تدرك اذن في استدلالاتها حكمة هذا التغير ، من حيث ان الاشياء تتصـف بالحرارة مثلا ، ثم تتصف ذاتها بالبرودة ، فلا قرار لها عـلى حال من الاحوال • وقد يتمثل هذا التغير ـ بالاضافة الى الماء ـ بعنصر حسـي هو النار : « انها تحيي موت التراب ، والهواء يحيي موت النار ، والماء يحيي موت الهواء والهواء يحيي موت الماء ، فكل الاشياء تتحول للنار ، والنار لكل الاشياء ، كالسلع تستبدل بالذهب والذهب يستبدل بالسلع » (fr. 25) وتظهر لنا عملية الاستبدال هذه شبيهة كل الشبه بلهب النار المتقد الـذي يلحظه الانسان في حركتها الصاعدة الهابطة باستمرار • ويتمثل هذا بالنسبة الى النار الاصيلة بسبلين : صاعد ونازل وباتجاهين مختلفين اولهما يبدأ من التراب ويرتفع الى النار ، وثانيهمـا يبدأ من النـار وينزل الى التراب • ويخضعان لنظام ثابت متعادل يؤدى الى التوافق والتوازن كي تتحقق الاشياء تحققا فعليا في الوجود •

ويقول فلوطرخس في هذا السبيل(٤٠) :

« واما يراقليطس (هرقليطس) فذكر ان مبدأ الاشياء كلها من نار وانتهاءها الى نار ، واذا انطفأ النار تشكّل بها العالم : واول ذلك ان الغليظ منه اذا تكاثف واجتمع بعضه الى بعض صار ارضا • واذا تحللت الارض وتفرقت اجزاؤها بالنار صار منها الماء طبعا • وايضا فان العالم وكل الاجسام التي فيه تحللها تيرها النار اذ هي المبدأ ، لان منها يكون الكل واليها ينحل ويفسد »•

ويبدو ان فلوطرخس اعتمد على سمبلقيوس وشرحه على ارسطو فيما اورده عن النار وانها مبدأ اصيل للاشياء عند هرقليطس • وهذا ما يؤكد لنا ايضا ان المعلم الاول ادرك في نار هرقليطس المعنى المادي لها ، لا انهـا

نار فرضها الحكيم عقليا واشاد موقفه على فرضه بالذات . واذا قارنا هـذا بالشذرة الخامسة والعشرين ـ سابقة الذكر ـ ظهر لنا ان هرقليطس اشار اشارة استدلالية الى عناصر ثلاثة هي التراب والماء والنار . وجعل من النار اصلا لجميع الاشياء . وليس من السهل حقا تصور النار التي اراد الرجل ، بل يصعب حتى ادراكها بالحس الا بسبيل التمثيل أو المحاكاة لانها فائقة عليه . فكأن النار هنا هي الخصيم في نهاية الشوط وغاية الحياة[٤١] . لانها عندما تعلو على جميع الاشياء فستحكم عليها وتدينها (fr. 26) .

وترتسم فكرة النار وتغيّرها بصورة الائتلاف بين الاضداد . فهنـاك قبل الائتلاف صراع دائم بين الاشياء التي يتركب منها العالم . هذا الصراع يتمثل في انها تفنى في النار لتعود حيّة في معنى الوجود العام . وتتحرك نحو التراب فتذبل ذبولا شاملا ـ فوجودها اذن هو في بقاء التعادل بين الحركتين المتعاكستين : الهابطة والصاعدة على السواء ، دون تغلب احداهما عـلى الاخـرى ... « ان الطريق الى فوق والى اسـفل واحد .. وان البدء والنهاية في محيط الدائرة واحد .. الخـالدون فانون والفانون خالدون ، احدهما يعيش بموت الآخر ويموت بحياة الآخر .. ان الحرب غاية لكل شيء ، وان التنازع عدل ، وان جميع الاشياء تكون وتفسد بالتنازع .. ان الواحد متألف من كل الاشياء ، وكل الاشياء صادر عن الواحد .. ان الحياة والموت شيء واحد .. » (fr. 29, 62, 69, 70)

ويبدو هرقليطس هنا وكأنه يذهب الى ان كل قضية في هـذا الكون تحمل نقيضها ولا نعرف الا به ، فوضع جدلا صاعدا وجدلا نازلا يكون هو السبيل الى الادراك الجزئي لظواهر الحياة المتغيرة . ولعله اراد التأكيد بان التمييز بين هذا التعاكس هو من عمل الانسان ولا دخل للطبيعة فيه . وفي حال الحكم العقلي يصعب الاخذ بهذا التمييز لان كلا المتعاكستين تسيران في اطار الطبيعة الواحدة الخاضعة لقانون التغير ، بمعنى ان مجراهما واحد ،

فالتمييز اذن امر ظاهري فحسب ! ولكن خلف هذا الظاهر حقيقة اعمق اثرا على الفكر الا وهي (الوحدة أو الانسجام) الذي ينتهي اليه هـذا الصراع . فوحدة الاضداد هي الاصل وعنها يصدر هذا التغيّر في صعود وهبوط وفي دورات متعاقبة سميت بالسـنة الكبرى . أمد الدورة الواحدة ثماني عشرة ألف عام أو ثمانمائة وعشر آلاف . حيث تأتي النار على كل الاشياء فتحكم عليها وتدينها .. والمبدأ الذي ينتهي اليه صراع الاضداد هو الكلمة (اللوغوس) ـ انه المعيار الابدى الموجود وراء التغير الدائم للظواهر والمقياس والغاية لجميع الاشياء . فادمج اذن هرقليطس اللوغوس بالعالم ولم يميّز بين الطرفين بشكل واضح . فاللوغوس هو الله في حقيقته الابديـة الثابتـة .

ولكن من يدرك هـذا اللوغوس ؟ أهم الناس جميعا عـلى اختلاف مشاربهم وتضارب نزعاتهم ؟ أم عقل الحكيم فحسب ؟ .. أجل انه عقل الحكيم حيث يدرك (الكلمة) ويدرك مشاركتها لجميع الاشياء باعتبارهـا واحدة : « فالله نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلم ، وفرة وقلة ، يتخذ اشكالا مختلفة كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذي يفوح منها » .

وبهذه الوحدة الوجودية في المدلول الواحد الذي عبّر عنه هرقليطس تارة (باللوغوس) وتارة (بالعقل) وتارة (بالنار) لم يعد ضروريا قيـام موجد لهذا العالم : « ان هذا العالم المنظم لم يخلقه اله ولا انسان ، ولكنه كان وهو لا يزال ، وسيظل الى الابد (نارا) لا تنطفيء فيها الحياة ، تشتعل بمقدار وتخبو بمقدار . » (fr. 20) . وتغليب هرقليطس لمنطوق العقل على الحس ـ باعتبار ان الحواس ليست سوى نوافذ له والعقل هو الـذي يهدينا الى معرفة هذا القانون العام ـ يقودنا هذا الموقف الى القول ان فكرة اللوغوس مبدأ عقلي شامل . وغاية المعرفة الحقة هو الاتحاد أو الاتصال بين المدرك والاصل في نهاية الشوط . فالنفس الانسانية ـ وهي بخار حار ـ

وجدت وفيها القدرة على تفهم هذه المشاركة العامة لانها من جوهر النار الاصيلة • أو بمعنى آخر ان هرقليطس ربط بين النفس والعمليات العقلية برباط اساسي لا ينفصم •

وتجدر الاشارة الى انه ليس ثمة تناقض ينتج عن القول بالوحدة الوجودية عند هرقليطس والتزام نظرية التغيّر الدائم للاشياء ، لان المذهب ينهض في اساسه على تغير في الكيف مع اصل ثابت هو قانون التغيّر بالذات •• وعلى هذا الاعتبار فمبيا فيزيقا هرقليطس ـ كما يقول الفيلسوف رسل فيها قدر من الديناميكية يقنع اشد المحدثين ميلا الى الحركة[٤٢] • وفي هذا كثير من الصحة والنصفة للرجل الحكيم •

٢١ ـ والآن أين يمكن ان نضع هرقليطس من المخطط التاريخي للافكار الفلسفية ؟

لقد نظر الباحثون الى المشكلة باوجه مختلفة ، نقسم مال الى اعتبار ان افكاره نمو منطقي للمدرسة الايونية ومن هؤلاء زيلر وبرنت ومارغريت تايلر ويوسف كرم •• وآخرون ذهبوا الى القول ان آراءه تنهض لنفسها ولا تضاف الى مدرسة معينة لغلبة عنصر التصوف عليها ، ومن هؤلاء كورنفورد ورسل ويميل الى هذا الرأى مؤلف الكتاب ايضا •

وبعد فمن الصعب حقا ان يتنكر انسان ما في القرن العشرين لدعاوى هرقليطس في التغيّر المستتبع للحركة والزمان •• ومن هنا كانت مواقفه مهماز تقدم للعقل البشري قديما وحديثا •

فَلاسِفَة الثَّبَات وَالوُجُود

بارمنيدس ـ زينون ـ مليسوس

٢٢ ـ تمثلت المدرسة الجديدة بصورتها المتكاملة بمفكرين ثلاثة أولهم بارمنيدس ، واوسطهم زينون ، وآخرهم مليسوس ٠ حيث نهضت آراؤها وتعاليمها على اكتافهم ، وشارك في اتجاه مقارب لها حكيمان آخران هما فيلولاوس وايريتوس من مدينة كروتون موطن الفيثاغورية القديمة ٠

وكان المذهب العتيد بدعا في اطاره العام اذا قيس الى مذاهب السابقين عليه ٠ فلقد ظهر وكأنه النبع الناقب وهو يحمل في تضاعيفه بذورا طويلة أمد الحياة ، وكان لها حقا ما نزعت اليه ، فتشعبت اصولها في حنايا الفكر اليوناني وطبعته بطابعها الخاص وفي صور متباينة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر ٠ فظهرت معالمها مثلا في آلية الذريين وعقلانية انكساغوراس وميثولوجية امبادفليس وجدلية افلاطون ومنهجية ارسطو ٠٠ وتعود حصيلة المدرسة في نهاية الشوط وكأنها بدء للميتافيزيقا وللمنطق معا ، وهو حكم على المذهب سنتناول بعض جوانبه خلال دراستنا القائمة ٠

* * * *

بارمنيدس(٤٣) (٥١٥ ـ ؟) ق٠م :

٢٣ ـ ينحدر من اسرة ارستقراطية عريقة الجاه والثراء ، كانت تقطن ايليا على الشاطيء الغربي من ايطاليا ٠ اسهم في جانب الحياة الاجتماعية لبلاده وذلك بتشريعه قانونا لمدينته اتخذه مواطنوه نموذجا للحكم الصالح ٠ وشارك ايضا في دراسات تيارات عصره الفكرية فتتلمذ على يد فيثاغوري يدعى امينياس ولكن ليس للاورفيثاغورية اي تأثير عليه فهو يتجه نحو موقف جديد يختلف عنها ، الا اللهم بعض آراء في احكام النجوم وعلم الفلك استقاها عن المدرسة باجتهاد خاص(٤٤) ٠ وهناك من يميل الى ربط افكاره وتطورها بالشاعر الحكيم اكسانوفان ، وعند المقارنة نجد ان افكار الاول تختلف جملة وتفصيلا عن الحكيم المذكور ، ولكننا نجد عاملا مشتركا بين الطرفين معا هو التحدث عن (الحقيقة الواحدة) ٠ على الرغم من ان كلا منهما سلك الى هذه الحقيقة سبيلا خاصا به ٠

بدأ حياته الفلسفية بقصيدتين اولاهما « في الحقيقة » وثانيتهما « في الظن » • ويشبههما اللورد رسل من حيث الافكار بموقف الاستاذ برادلي في ابحاثه عن (الحقيقة) من جهة (والمظهر) من جهة اخرى مع ملاحظة اختلاف البدء بينهما(٤٥) •

نحا بارمنيدس في نظمهما منحى سداسيا hexameter Verse دفع أمباد وقليس بعد حين الى تقليده واحتذائه واتبعه آخرون •• ويسربل قصيدتيه غموض وابهام تقصدهما الشاعر الفيلسوف ليظهر براعنه ــ كما نعتقد ــ في المجاز والتشبيه والايماء • ولعل اتخاذه الشعر اداة للتعبير عن افكاره كان مستمدا من طبيعة حضارته اليونانية بالذات ، فقد بدأت هي الاخرى شعرا على يد هومر وهزيود ــ والشعر ألصق بالعاطفة من النثر ــ ودرج اسلوبها الادبي بين هذه الحوافي حتى تبوأ منزلته المرموقة في القرن الرابع قبل الميلاد بعد ان عانى ارهاصات من النثر الخطابي والمسرحي ثم المرسل الطويل •

ويرى الاستاذ ييجر(٤٦) ان المهاجرين الايونيين في جنوب ايطاليا وجدوا اللهجة الدورية هي السائدة فآثر بارمنيدس الكتابة باسلوب يفهمه الجميع على اختلاف لهجاتهم فقلّد بذلك اسلوب هومر وهزيود بوجه خاص •• ولسنا نخالف رأي ييجر ، فلعل في ذلك كثير من الصحة ، ولكن هذا لا يتباين من ناحية التبرير الذي رأيناه •

٢٤ ــ تُستهل القصيدة ــ بادىء ذي بدء ــ بحكاية خيال مجنح ينساب انسيابا رقيقا عذبا ، حيث يتصور بارمنيدس نفسه وكأنها في رحلة طويلة تبتغي من ورائها مقابلة الآلهة في رحابها الاعلى ، فتعرج العربة بصاحبها الى مفاوز الليل والنهار ، وتظهر الابواب الذهبية المرتفعة لباصرتيه موصدة الرتوج ! • ولكن العذارى الجميلات ساعدنه فخاطبن (العدالة) ــ ذات

البأس والطول ــ بالعاطل ساحرات عذاب طالبات اليها فتح الأبواب لغسيف الآلهة الجديد ! فانحسرت امامه الظلال فأبصر عالما عريض المدى طويل الصدى ، قادته العذارى خلاله على استيحاء حتى بلغ رحاب الآلهة ، فعلمت انه جاء يبتغي البحث عن « طريق الحق » وعن الانسان وعن كل الاشياء ظاهرها وباطنها على السواء ! • وبدأت الآلهة تلهمه عبرها الصادقات ، فدلته وارشدته الى الطريق الصواب : « انظر بعقلك نظرا مستقيما الى الاشياء فان بدت لك بعيده فهي كالقريبه ، وان تستطيع ان تقطع بما هو موجود ، فالاشياء لا تفرق نفسها ولا تجتمع ، فكل شيء واحد من حيث البدء ، لانني سوف اعود الى المكان نفسه •• » نصحته الالهة أن يسلك سبيلا واحدا هو (الجدل ــ بمعنى معرفه الحد والماهية ــ) حيث يهديه هذا الامر الى المهيع القويم الذي لا عوج فيه ، لان العقل والجدل دلالة واحدة في الوجدان وعند مماحكة الدليل والبرهان •

والمعرفة في المذهب طريقان : طريق اليقين وطريق الظن ، وحسب الآلهة الخيّرة ان شير عليه بسلوك الاول وتنكب الثاني • فالاول منهما يؤكد لنا ان اللفظ والفكر يحملان معاً صفة الوجود ، لان اللاوجود عدم بحت • بينا طغام الناس لا يفرقون بين اللفظين فيجتمع لديهم النقيضان ، وهما امران لا يجتمعان ولا يرتفعان ! • فحقيقة الحال اذن أن الوجود موجود ، كلـّي ثابت ، متصل أزلي ، ينفرد بنفسه لا يتغير مطلقا ، ولا يحدث عن شيء اسمه (اللاوجود) لان الاخير خال من التفكير • فهو ــ اعني الوجود ــ متجانس في جميع اطرافه ، كل شيء مملوء به ولا يحتاج الى شيء :« لان ليس شيء موجودا ولا سوف يكون موجودا ما خلا الوجود » ــ مثله مثل كتلة الكرة المستديرة المتساوية الابعاد عن المركز • وبهذا الاعتبار فلا بدء له ولا نهايه لان الكره اكمل الاشياء • فهو اذن وجود مطلق غير متعدد لا ينضاف الى شيء ولا يضاف اليه شيء ، ففي كلا الاضافتين تناقض

يستتبع الثبات والوحدة معا•• واما سائر الاشياء التي دون هذا اوجود فوهم وخيال ! ••

بمثل هذه الصورة العقلية الخالصة رسم بارمنيدس تجربته الانسانية العميقة ، تلك التجربة التي بدأت اول ما بدأت بفكرة الوحدة ، ولكن المسلك تباين اليها من حيث ان الحكيم في هذه التجربة أكد حدها وماهيتها وطبيعتها ، بينا ظلع الآحرون دون هذا الموقف ، فبدت لهم الحقيقة بشكل فردي متعين ، وهذا ما رفضه بارمنيدس لمخالفته قواعد المنطق القائمة على مبدأ الذاتية وعدم التناقض(٤٧) • ويتأتى الرأى الاخير من عدم تفرقة بارمنيدس بين المعنى الحملي للعبارة والمعنى الوجودي ، فانتهى به المطاف الى التأكيد على يقينية الوجود الثابت فحسب • فكأنه بهذا الرأي فرق بين شيئين : الوجود من جهة والطبيعة من جهة اخرى ، متنكرا لفكرة التكثر في الاشياء لانه نفى وجود ما بينها من علاقات • فالذي يبدو لنا هو الجانب الذي يطابق الفكر مفهوما ومدلولا ، ولو اخذنا موقف الرجل بمعناه الميتافيزيقي لظهر لنا انه يحمل دلالة قوية في الذهن •

ومن جهة اخرى أكد بارمنيدس على قدمية الوجود وأزليته من حيث انه لو فرضنا حدوثه فاما ان يكون محدثا لذاته أو بوساطة غيره، وكلا الفرضين باطلان : لان الاول منهما لا يرتبط بالزمان فلا يكون هناك دفع للاختيار في الوجود في لحظة دون اخرى بسبب خارج عن الوجود ذاته • واما الثاني فمتى ما فرضنا (الوجود) فيستحيل معه عند ذاك وجود علتي سابق عليه ، بل هو قائم حيث ازليته وقدميته ، وبهذا لا يخضع لكون ولا فساد • وقد استعان بارمنيدس بحجته المعروفة (المعضلة) Dilemma برر موقفه هذا ، معتمدا فيه على رفض النقيضين معاكي يرتفع الخلاف مع الخصم •

واما « طريق الظن » فهو حكم حسي لا يصدق حمله على معنى العلم الصحيح ، لانه يعتمد الظواهر من الامور ، ولكننا مضطرين اليه اضطرارا

باعتبار ان الاشياء واحد في العقل كثير في الحس • فهو اضعف الايمان في مشكلة المعرفة الصادقة •• ومهما يكن فخطوة بارمنيدس هـذه جمع بين نقيضين ، ولا ندرى كيف أجاز لنفسه ذلك بعد مرحلة اليقين الذي اراد ؟!•

وعلى الرغم مما ذكرنا فموقفه الاصيل يؤدى الى نكران عالم الحس ، لان الحقيقة الصادقة هي التي تطابق الفكر موضوعا ووجودا ولا تختلف عنه اصلا ، بحيث يدفعنا هذا الموقف الى تجريد مبادىء عقلية خالصة كان لها اثرها الكبير في المنطق قديما وحديثا •

واذا قيس موقف بارمنيدس من بُعْدٍ آخر كان لوجهـة نظره في الوجود عمق قلّ نظيره بين القدماء من حيث انه اكدّ ان العقل هو السبيل الوحيد الى ادراك الوجود وما سواه ظل زائل •• فاقام الرجل الميتافيزيقا على اصول عقلية ومنطقيه طبعت الفكر الانسـاني بطابعها قرون عدة من الزمـان •

ومن طريف ما يذكر هنا ان الشيخ الرئيس ابن سينا ذهب مذهبا معينا في تفسـير موقف بارمنيدس وتلميذه مليسـوس نحو الوجود ، وذلك في مخطوطة الطبيعيات من كتاب الشفاء حيث جاء رأيه بما فحواه(٤٨) :

« ان الشيخ (أي ابن سينا) غير محصل لآرائهما على حقيقتها ، ولكنه يميل الى انه لا يمكن ان يبلغا من السفه والغباوة المبلغ الذي يدل عليـه ظاهر كلامهما ، فلعل اشارتهما كانت الى الموجود هي الى الموجود الواجب الوجود الذي هو بالحقيقة موجود وانه غير متناهي القوة ، أو انه متناه بمعنى انه غاية ينتهي اليها كل شيء ، والذي ينتهي اليه يتخيل انه متناه من حيث انه ينتهى اليه • أو ان يكون غرضهما هو ان طبيعة الموجود بما هي طبيعة الوجود معنى واحد بالحد والرسم ، وان سائر الماهيات هي غير نفس طبيعة الموجود لانها اشياء يعرض لها الوجود ويلزمها كالانسانية ، فان الانسانية

ماهية وليس الموجود ولا الوجود جزءا لها بل الموجود خارج عن حدّها لاحق لماهيتها • فيشبه ان يكون من قال انه متناه عني انه محدود في نفسه ليس طبائع ذاهبة في الكثرة ، ومن قال انه غير متناه قصد انه يعرض لاشياء غير متناهية •• » •

* * * *

٢٥ ـ ويجدر هنا ان نحدد مذهب بارمنيدس بالنسبة لتيارات الفكر المختلفة ، ونعني بذلك محاولة وضعه في اطار معيّن من المثالية أم المادية ، أو في حد وسيط بينهما ؟

يميل جلّ القدماء الى انه مادي النزعة باختلاف صور تأثراتهم به ، ومن اولئك امبادوقليس وانكساغوراس وديمقريطس ولوقيبوس ولوكريتس وارسطو • ويذهب المحدثون ـ لا على سبيل الحصر ـ الى موقفين احدهما يتميز بتأييد موقف القدماء وعلى رأس هؤلاء زيلر وبرنت ورسل • وثانيهما يتميز بالميل به نحو المثالية وتغليب المنطق كأساس للمذهب ومن هؤلاء رينهرت وبرونوبورخ وكورنفورد • واما الذين اختاروا الجمع بين الاتجاهين المثالي والمادي فيمثلهما الاستاذ رى والسيدة مارغريت تايلر •

والحكم على موقف بارمنيدس صعب حقا ولكننا نميل الى تغليب روح المثالية عليه باعتبار اننا اخذنا بالرأي الذي يجعل من الحكيم المذكور رائدا للمنطق والميتافيزيقا معا • يضاف الى هذا رواية زينون ومليسوس ـ وهما حكيمان ذبّا عن استاذهما ذبّا صادقا مخلصا ـ التي تتضمن ان بارمنيدس أكد لا جسمانية الوجود ، من حيث أنه لو كان موجودا فلابدّ ان يكون واحدا واذا كان واحدا فلا يمكن ان يكون جسما اذ لو كان له جسم فلابدّ ان يكون ذا اجزاء ••• فموقف بارمنيدس ازاء المشكلة ظنّي بحت ، والظن لا يغني عن العلم شيئاً •

٢٦ ـ ولم يقتصر بحث بارمنيدس على الوجود والفكر فحسب ، بل تعداه الى الطبيعة والنفس • فكان يرى مثلا ان العالم مرتّب على شاكلة أكلة مضفورة مركب بعضها على بعض ، ومنها ما هو مخلخل ومنها ما هو متكاثف ومنها ما هو مجتمع • ومال الى ان المسكون من الارض هو ما تحت منطقتي المنقلبين وانها تتموج ولا تتحرك لان بعدها من الجهات كلها متساو • وينقل زيلر معتمدا على رواية ثاوفراسطس ان بامنيدس يعدّ أول متكلم عن الشكل الكرى للارض ، ولعله استفاد بعض أرائه الفلكية من تلمذته على يد امياس كما ذكرنا سابقا ••• وكان يرى ان القمر مساو في حجمه لحجم الشمس وانه يستمد النور منها •

واخيرا فان بارمنيدس كهرقليطس سواء بسواء ، كلاهما شك في الحس وبداهته وحاولا تصحيح الحكم عليه من خلال (الفكر) ، فسلك كل منهما مسلكا خاصا به واتنهيا الى نتائج متباينة بعضها مع البعض الآخر ، ولكنها كانت ولا تزال قيد دراسة وعناية الباحثين والمفكرين •

* * * *

زينون الايلي (٤٩٠ ــ ٤٣٠) ق٠م :

٢٧ ـ حكيم آخر من ايليا تتلمذ على يد مؤسس المذهب فحفظ لـه هذا الفضل طيلة حياته • تعتور دراسته صعوبات جمة ذلك لان التأريخ العام ضنين في التحدث عن سيرته وشخصه ضنــة نحســبها متعمدة • ويلتحف منحناه الشخصي غموض وابهام بحيث يعسر معه معرفة تطوره الذاتي الذي واكب مذهبه خطوة فخطوة باعتبار انه معاناة وتجربة صادقة لحياته الخاصة • وكان ضمن مجموعة المغمورين في حنايا التأريخ حتى عصورنا المتأخرة ، لا يهتم بافكاره الا صفوة الباحثين الذين ادركوا الغور البعيد الذي دفع به الى تقديم معضلاته عن الوجود • ويرتبط تاريخه العام غالبا باسم استاذه

بارمنيدس حيث يشـرح لنا افلاطون علاقـــة زينون باسـتاذه في محـاورة (بارمنيدس) شرحا روائيا جذابا[٤٩] • ويميل بعض الباحثين الى اعتباره من نسيج خيال افلاطون وشاعريته ! ومهما يكن فتلمذته على يد بارمنيدس لا ترتفع اليها الريبة مطلقا •• ولم تقتصر حياته على هذه العلاقة الفكرية فحسب ، بل شارك وبصورة فعالة في الحياة الاجتماعية والسياسية لبلاده بدلالة موقفه من الطاغية نيركوس أميرايليا ، حيث تواطأ زينون مع جماعة من مواطنيه على قلب نظام الحكم وابعاد الطاغية عن عرشه • ولكن لئيماً من الناس فشى السر الرهيب ، فزج الرجل بالسجن ولقي شـيئاً كثيرا من التنكيل بغية اضعاف ارادته كي يبوح باسماء زملائه المشاركين معه في حركة الانقلاب ، ولكنه ابى لنفسه هذا الموقف ، وخشى ان ينهار امام هذا الترهيب الظالم ، فقطع لسانه بيده كي يعود ابكما لا ينطق ، وقويا لا ينهار ! • وان دلت هذه الصورة التراجيدية عـــلى شيء فانها لدلالة واضـحة على مدى مشاركة الفيلسوف اليوناني هموم مجتمعه ومآسي عصره ومواطنيه • وانها لكذلك مهماز يشهر بوجه اولئك الذين يحسبون الفلسفة ترفا عقليا غارقا في الخيال ليس غير ! •

٢٨ ــ تمثل مذهبه في كتاب ردّ فيه على القائلين بالكثرة والحركة معا • فانكرها واعادها سكنات متعاقبة • واستعمل لتأكيد وجهة نظره هــذه قياس الخلف ad impossible كي يثبت الاصل ببطلان النقيض[٥٠] •ومغالطاته كانت مجال نقاش طويل لارسـطو في مؤلفاته • وكذلك حاولت الرواقية ان تتفهم نفي الحركة بعمق اكثر مما اثاره المعلم الاول حولها • ونحن عرفنا حجج زينون من خلال كتب ارسطوطاليس[٥١]• على الرغم من ان المعلم الاول لم يكن موضوعيا خالصا في نقده لها •

وبقيت حجج زينون على شاكلتها القديمة ينظر المعارضون لوجهتهـا نظرة نابعة عن قبولهم لاوليات أو مقدمات تابعة باصولها لنتائجهم البَعْدية

بالذات ، حتى انبرى لها العالم التشيكوسلوفاكي بلزانو Balzano (١٧٨١ – ١٨٤٨م) نوقف منها موقفا يباين ما وقفه القدماء عليها • ولكن لم يكن موقفه مؤدياً الى نقد جدي لها ، بل كان مثارا – بسبيل غير مباشر – ليقظة الروح الرياضية التي اثارها النقاش حول المغالطات خلال القرن التاسع عشر •• ثم ظهر جورج كانتور G. Cantor استاذ الرياضة التحليلية بجامعة هيل في حينه ، فقدم عنها دراسة نقدية مفصلة •

وقد يتساءل القارىء عن القصد الذي دفع زينون الى تقديمه هذه الحجج • هل ارادها اوجه الجدل فحسب ؟ أم كان في الميدان الفكري خصوم دفعوا به الى ابطالها المناهضة عن رأي استاذه في الوحدة الثابتة ؟ • عند مناقشة الموقف يظهر ان هناك اختلافا في الحكم عليها : نقسم يرى انها موجهة ضد الفيثاغوريين مباشرة الذين كانوا يقولون ان الاشياء مؤلفه من وحدات منفصلة ، ومن انصار هذا الرأي الاستاذ برنت[٥٢] • وقسم يرى انها حيكت ضد الفلاسفة الذريين • بينما يميل هيجل الى ان الحجتين الاولتين تدفع فكرة قبول انقسام اللامحدود ، والاخرتين تدفع فكرة الانقسام ذاتها ، فهي اذن موجهه ضد اولئك المنافحين عن احدى هاتين النظريتين •• ويذهب الفيلسوف رسل الى ان جدل زينون موجه بشكل مباشر الى الفكرة القائلة ان المكان والزمان يحتويان على « نقاط » و « لحظات » معا ، وضد النظرة التي تدعي ان امتداد المحدود في الزمان يحتوى اعدادا محدودة ايضا من النقاط واللحظات ، ومن هنا فموقفه جدلي محسب[٥٣] • حيث اراد – وبجديه مخلصه – تأكيد ان الكثرة خداع وان المكان والزمان غير قابلين للانقسام البته • ولانه كان يعتقد ايضا استحالة الحركة في الامتداد المنقسم الى ما لا نهاية ، ويرى انتفاء تكوين الامتداد ، ولكن يبدو انه لم يشر الى انكار وجوده ! •• ويدعي افلاطون اخيرا – على لسان زينون – ان حججه سيقت في الدفاع عن موقف بارمنيدس ضد اولئك الساخرين

من آرائه ، وهم لا يعلمون ان موقفهم اكثر شنعة وتعسفا منه[٥٤] !

* * * *

٢٩ ـ يقدم زينون حججه بصورتين اولاهما تتعلق بابطال الكثرة ، وثانيتهما تدور حول ابطال الحركة .

اما الاولى فيعرضها باربع مراحل[٥٥] .

يقـــول :

(١) لا تخلو الكثرة ان تكون اما كثرة مقادير ممتدة في المكان ، أو كثرة آحاد غير ممتدة ولا متجزئة . والحجة الاولى تنظر في الفرض الاول ومؤداها ان المقدار قابل للقسمة بالطبع ، فيمكن قسمة اي مقدار الى جزءين ثم الى جزءين وهكذا دون ان تنتهي القسمة الى آحاد غير متجزئة ، لان مثل هذه الآحاد لا تؤلف مقدارا منقسما ، واذن يكون المقدار المحدود المتناهي حاويا اجزاء حقيقية غير متناهية العدد ، وهذا خلف .

(٢) تنظر في الفرض الثاني وهو ان الكثرة مكونة من آحاد غير متجزئة ، فنقول ان هذه الآحاد متناهية العدد ، لان الكثرة ان كانت حقيقيـة كانت معينة ، وهذه الآحاد منفصلة والا اختلط بعضها مـع بعض ، وهي مفصولة حتما باوساط Means وهذه الاوساط بأوساط وهكذا الى ما لا نهاية ، مما يناقض المفروض ، فالكثرة بنوعيها غير حقيقية ! .

(٣) اذا كانت الكثرة حقيقية كان كل واحد من آحادها يشغل مكانا حقيقيا، ولكن هذا المكان يجب ان يكون هو ايضا في مكان ، وهكذا الى غير نهاية ، فالكثرة اذن غير حقيقية .

(٤) اذا كانت الكثرة حقيقية وجب ان يقابل النسبة العددية بين كيلـة

الذرة وحبة الذرة وجزء على عشرة آلاف من الحبة نفس النسبة بين الاصوات الحادثة عن سقوطها الى الارض ، ولكن الواقع أن لا وزن لها ، فليست الكثرة حقيقية(٥٦) •

ويظهر لنا من الحجج السابقة ان الاولى منها تنهض على العدد ، أو ما اسماه المترجمون العرب قديما بقاعدة (التنصيف) اي القسمة الثنائية • والثانية تستند الى المقدار ، والثالثة ترتبط بالمكان ، والرابعة تتعلق برد المعرفة الحسية وادراكاتها الكلية •

ويميل زيلر الى اعتبار الحجج الاربع تتضمن تركيبا واحدا من حيث الغايه • ويعلق الاستاذ ديفيد روس Ross في نشرته لطبيعيات ارسطو Phys. 479 على الحجة الاولى بما فحواه :

ان الكثرة يجب ان تكون محدودة أو لا محدودة في العدد فحسب • فتارة هي محدودة باعتبارها كثرة كما هي لا أقل ولا اكثر ، وتارة غير محدودة باعتبار آخر وهو ان الشيئين يكونا شيئين في حال الفصل بينهما فقط ، ولكن لكي يمكن فصلهما يجب ان يكون (شيء) بينهما اي بين الشيئين المنفصلين ، وكذلك في ان يكون شيء في هذا الشيء – بين طرفيه – الذي هو وسيط في الفصل بينهما ، وهكذا الى غير نهاية **ad infinitum** ولا يمكن الركون الى احدى النتيجتين معا ، لذا يظهر عند ذاك انه يوجد شيء واحد وبصفة واحدة لا غير ! •• ومهما يكن فقبول الحجة لا يتم ما لم تفهم على ان الاشياء المبحوث عنها يجب ان يفرض فيها مجموعة من النقاط على خط ما ، بحيث بين كل نقطتين (مثلا a^1 a^2) يمكن الحصول على نقاط اكثر مثل a^3 a^4 وهكذا بلا انقطاع •

واما ابطال الحركة فقدم زينون اربع حجج ايضا(٥٧) :

(١) ان كان القاطع للبعد لا يقطعه الا بعد قطع نصفه ، وانصافه لا نهاية

لها ، فقطعه لها انما يكون بعد قطع ما لا نهاية له • وما لا نهاية له لا يأتي المبتدىء له على الفراغ منه ، فليس احد يقطع المسافة ، وهكذا الى غير نهاية(٥٨) •

(٢) ان كانت حركة موجودة يلزم ألا يلحق اسرع سريع حركة ابطأ بطيء حركة اذا تقدمه البطيء بقطع مسافة ما أو غيرها ، لانه يجب اولا ان يكون السريع يقطع الفضلة التي يسبق بها البطيء • ولا يمكن ان يقطعها لان انصافه الا نهاية لها ، فهو ابداً يكون مشغولا بقطعها ، والبطيء قد اتى على قطعها وهو مشغول بما زاد عليها وقطع لشيء من الزيادة • ويلزم من كلتا الجهتين الا يبلغ القاطع الى الطرف ، ولا يلحق ابطأ بطيء احضارا(٥٩) •

(٣) يلزم ان يكون المتحرك في ساعة أو غيرها ساكنا فيها متحركا معا • فلسهم المتحرك مثلا حالته السكون في الواقع ـ أو بالاحرى انه يقطع المسافة بسكونات متعاقبة ـ فهو اما في مكانه الذي وجد فيه أو في غيره ، والثاني لا يجوز ، فالسهم ثابت في مكانه ، باعتبار ان الزمان منقسم الى ما لا نهاية من الآنات Nows •

(٤) ان الاجسام المتساوية في السرعة تقطع مكانا متساويا ايضا اذا تحركت ضد حركتها ، بحيث ان احداهما تتحرك من وسط ميدان غير متحرك ، والاخرى من طرف الميدان المتحرك ، حركة مستوية السرعة • فيكون متحركان متساويي السرعة قطع احدهما البعد الذي قطعه الآخر في نصف الزمان الذي قطعه الاول ، وهذا خلف(٦٠) •

وهكذا تنتهي حجج زينون ضد الحركة • فالاولى منها متعلقة بقسمة الزمان ، والثانية تستند الى السرعة وتسمى حجة أخيل والسلحفاة ، وكلاهما تخصان المكان • والثالثة تقوم على نفي حركة السهم فوصفت به ، والرابعة تنهض على تساوي الشيئين مكانا وسرعة ••• وكلها تعتمد حكما

خاصا في تفسير طبيعة الزمان والمكان وموقف القدماء منهما •

وعلى الرغم من هذا فموقفه في حجته الاولى في نفي الحركة ، لم يحصل على حل شاف لدى الاوائل ، ولا يزال من الناحية الرياضية يمتلك مجالا كبيرا في ابحاث النهاية واللانهاية ، فكأن صاحبه مؤسس حقا لفلسفة اللامحدود التي أثرت حديا في الفكر المعاصر • ولعل رابع هذه الحجج اكثرها تعقيدا بحيث لم يتفهم حتى ارسطو عمق ما ادعاه زينون في معضلته•• و « مشكلاته » في الواقع اكثر تجريدا من الحركة ذاتها بل هي في اطار رياضي ـ ميتافيزيقي بحت •

يقول الفيلسوف المعاصر هنري برجسون[٦١] ان موقف زينون ناتج من الالتباس بين الحركة والفضاء ، لان المدى الذي يفصل مركزين من المراكز يقبل التجزئة دائما • ولو كانت الحركة مؤلفة من اجزاء كأجزاء المدى عينه لما قطعت المسافة • ولكن الحقيقة هي ان كل خطوة من خطوات (أخيل) فعل بسيط لا يتجزأ • لذلك يسبق اخيل السلحفاة بعد مرور عدد محدود من هذه الافعال •• ولما كان الفضاء خاضعا للتجزئة والتركيب ثانية وفقا لاى قانون ما ، فقد اجاز الايليون ان يركّبوا حركة أخيل المجملة ثانية ، ليس بخطوات اخيل بل بخطوات السلحفاة • وهكذا اقاموا محل (أخيل الراكض وراء السلحفاة دائما) سلحفتين مقيدتين بعضهما ببعض لا تخطوان الا الخطوات ذاتها ، ولا تقومان الا باعمال متعاصرة بحيث انهما لا تدرك الواحدة الثانية • ولكن لماذا سبق أخيل السلحفاة ؟ •• ذلك لان كل خطوة من خطواته وخطوات السلحفاة انما هي افعال لا تتجزأ من حيث انها افعال ، ومقادير من حيث انها فضاء • والجمع لا يتأخر من ان يعطي الفضاء الذي تعبره السلحفاة مع الاسبقية التي منحتها عليه • لذلك لم يهتم زينون بهذا عندما ركّب ثانية حركة أخيل وفقا للقانون ذاته الذي

ركّب به ثانية حركة السلحفاة ، ناسيا ان الفضاء يمكن تفكيكه وتركيبه أيضا بطريقة اختيارية ، وهكذا مزج زينون الحركة بالفضاء ..

* * *

ولا شك ان حجج زينون في قياس الخلف ـ على الرغم مما ذكرناه ـ تنحو منحا جديا هادفا عند صاحبها ، ولولا ذاك لما بقيت مئين من السنين مجالا للجدل والنقاش . ويستحسن النظر اليهما لا بحكم الحس ، لان الحسّ يخبرنا وبكل مدركاته ان السهم يتحرك وان اخيل يسبق السلحفاة ، ولكن الهدف الذي أراد الفيلسوف هو الناحية الجدلية التي تنهض على ان انحكم على الاشياء لا يتم بظواهرها ، بل بمنطق العقل وتحليله ، لان الحقيقة عقلية قبل كل شيء .

ومهما يكن فنظرة زينون الى الزمان والمكان وطبيعتهما تعدّ عملا بكرا ، دفع كثيرا من الوالجين من بعده الى التحدث عنهما ومحاولة فهم حقيقتهما ، وانتهوا الى مواقف متباينة ، يعود قصب السبق فيها دون ريب الى زينون شيخ الجدليين في عصره .

ومن الظلم حقا ما يدعيه البعض من ان حججه تميل نحو السوفسطائية بل على العكس ، ففي نظرته ما يشعر بقرابة واضحة بينه وبين مذهب المتالزم الحديث الذي يمتاز بنظرة ميتافيزيقية مقصورة على حقيقة العقل الفردي وحالاته الذاتية فحسب . وفَرْق ولا شك بين الادعاء بان ادلته سوفسطائية ، وبين القول ان السوفسطائية استغلت حججه في سبيل تدعيم كيانها كما فعلت مع غيره من الفلاسفة السابقين على سقراط .

ومما يلحظه المتتبع أيضا ان هناك بعضا من الباحثين ـ قديما وحديثا ـ يذهب الى القول بان زينون لم يضف شيئا جديدا الى الفكر الفلسفي والعلمي في عصره والعصور التي تلت[٦٢] . وانه لم يكن سوى ذابّ عن

رأي استاذه في تجريده للوجود كمّا وكيفا معا •• ولا ندري اية جدّة يريدون أكثر مما ذكرنا من تأثير خطير على الانسانية سواء في جانب مشكلة الزمان والمكان ، أو النهاية واللانهاية في الرياضيات ، أو في جدلية العقل المنطقية •• اوليس في هذا الموقف ما يدفع بعيدا الدعاوة التي يدعون ؟! وفوق هذا وذاك فان الابتداع الفلسفي لا يقاس بدلالة الكم بل بدلالة الكيف ، فان صح هذا فلم لا يعتبر زينون احد المبتكرين في عصره ، ابتكاراً يستوعب مدى واسعا للبحث والتنقيب حتى لدى الفلسفات المعاصرة •• ومن هنا فنحن ننظر اليه باعتبار ان موقفه يمثل مجموعة من التأملات المنطقية تغوص في أعماق الفكر الانساني وستبقى هي بالذات عنصرا حيّا مدى الزمان •

* * *

مليسوس (٤٤٤ ــ ؟) ق•م

٣٠ ــ هو ثالث الثلاثة وليس آخرهم • أيوني المنبت ، ايلي الفكر والاتجاه • ازدهر في الاولمبياد الرابع والثمانين • تتلمذ على يد بارمنيدس كصاحبه زينون • وتتفق كتب الرواية عنه انه قاد حملة مدينته ساموس ضد اثينا في معركة ضروس كان النصر في النهاية حليفه • وشارك في معارك أخرى انتصر فيها على بريكليز كما يروى ذلك ارسطوطاليس نفسه •

ألّف كتابا موضوعه « في الطبيعة أو الوجود » لم يبق من نصوصه الاصلية سوى عشر شذرات حفظها لنا سمبلقيوس خلال شروحه على ارسطو ولافكار السابقين على سقراط ــ وقيل انه انتهى منه في عهد الشباب(٦٣) •

٣١ ــ ينهض مذهبه على ان الموجود غير متكون أي ليس هو كائنا بعد ان لم يكن • وكل ما ليس بمتكون فلا مبدأ له ، فالموجود لا مبدأ

له ، وكل ما لا مبدأ له فلا نهاية له ، لان سلب المبدأ وسلب النهاية واحد ، وكل ما لا نهاية له فهو مستوعب لجميع الاماكن • فالموجود اذن واحد محتو على جميع الاماكن لم يبق مكان لسواه(٦٤) • فما كان موجودا فهو موجود منذ الابد وسيوجد الى الازل •• لذا فالوجود صفته الابدية واللاتناهي والتجانس ، لا يفسد ولا يزول ولا يحدث ، فهو واحد على الحقيقة(٦٥) •

وكذلك انكر التغيّر والحركة والكثرة عن الوجود ، واحاطه بنعت الحياة الدائمة ، وابعد عنه فكرة الخلاء وذلك لاستحالة وجود التكاثف والتخلخل(٦٦) • وانتقد مذاهب الطبيعيين الاوائل باعتبار ان سبيلهم في الحكم على الاشياء هو الحس ، والحس خادع مراوغ • فليست الحكومة للحس بل للعقل ذاته ، فهو الذي يقودنا الى الايمان بثبات الوجود ووحدته •

والذي نلحظه انه أعطى للوجود صفة الانطلاق واللانهاية ، بينما ذهب استاذه الى تأكيد مبدأ الوحدة • يضاف الى هذا اعتقاده بان المطلق من حيث الزمان مطلق كذلك من حيث المكان ، أي لا متناه ، ولكن منيسوس لم يبرهن على صحة الانتقال من المعنى الاول الى المعنى الثاني بل ترك الامر على عواهنه(٦٧) •

٣٢ — ويضم الى مدرسة ايليا مفكران آخران هما فيلولاوس وايريتوس ، وكلاهما من مدينة كريتون موطن الفيثاغورية القديم • ويروى عن الاول منهما — الذي عاش في فترة الحكيم — انه هو الذي طلب الى افلاطون ان يكتب الى « ديون » يرجوه ابتياع كتب الفيثاغورية ومخطوطاتها قبل ضياعها وفساد الكثير منها • وينسب لفيلولاوس كتاب عنوانه (في الطبيعة) في ثلاث مقالات يذكره ديلز في نشرته للشذرات(٦٨) •

ومن طريف ما يحدثنا فلوطرخس[٦٩] عن فيلولاوس انه كان يرى ان فناء العالم يحدث على طريقتين احداهما بنار من السماء تسيل منه ، والاخرى بماء قمري حيث ينقلب القمر وينسكب الماء ! • وذهب الى ان جرم الشمس كالزجاجة يقبل استنارة النار التي في العالم ويبعث الضوء الينا ، فتكون الشموس ثلاثا : أحدها التي في السماء وهي نارية والثانية التي تكون على سبيل المرآة ، والثالثة الانعكاس الذي يأتي الينا لأننا نسمي هذا الضياء باسم الشمس لانه صورة الصورة ! •

واما عن الارض فكان رأيه يساوق الفيثاغورية الاصيلة سواء بسواء[٧٠] •

* * * *

٣٣ ــ وبعد ففي عرضنا السابق لافكار الايليين تظهر سمات التأكيد على جانب الوحدة في المذهب تأكيدا سنلمس آثاره على أفكار اليونان القابلة • وفي الواقع ان المذهب في تطرفه ــ وما قام على نقيضه ــ يمثل نزاعا مستمرا في جيل طويل من الفكر ، يلتحم مع بعض في سلسلة متلاحقة تمتد حلقاتها الى عصرنا الحاضر • فللاول أنصاره ، وللثاني اتباعه • والميل عند البعض من المفكرين ان مذهب التعدد أقرب الى العلم والفطرة معا ، من حيث ان مذهب الوحدة ينهض على منطق فاسد مبتسر أوحى به المتصوفة واتباعهم .كما يعتقد ذلك اللورد رسل •

ولسنا نأخذ على موقف الفيلسوف البريطاني هذا سوى روح المبالغة ، فليس حال الفطرة كما نعتقد ارجح من حال العقل ، والامر يختلف بتباين الحكم عليه ، سواء رضينا بالوحدة أصلا ، أو بالكثرة مذهبا •

فَلاسِفَة الكَثْرَة وَالتَعَدّد

امبادوقليس ـ انكساغوراس

امبادوقليس (٤٩٥ ــ ٤٣٥) ق٠م

٣٤ ــ ولد في مدينة اغريغنتيا من اعمال صقلية ، ويعتبر المواطن الوحيد من الدوريين الذي لعب دورا مهما في الفلسفة[٧١] • وقد ازدهر خلال الاولمبياد الرابع والثمانين • وكانت حياته موضوعا طريفا استوعب كثيرا من الحكايات الشعبية المشكوك في صحتها ولها وشائج شبه بما يروى عن حياة فيثاغورس وهرقليطس •• واكثر القصص عنه يستند الى مأثورات ديوجينس وما حكاه عن حياته السياسية وطريقة موته •

تحدثنا الروايات التاريخية عنه حديثا مجملا خلاصته انه مال منذ صباه الباكر الى الاخذ بالاتجاه الديمقراطي في عصره ، فلعب دورا سياسيا مرموقا ، فشجب حكم الطغاة ، وواسى المنكوبين وعطف على الفقراء ، ووزع ما يملك على أصحاب الحاجات من أبناء مدينته ، فكسب بذلك رضاهم وحبهم وتأييدهم بحيث اندفعوا نحو تنصيبه أميرا عليهم ، ولكن نفسه العالية أبت قبول هذا المنصب ، لان في قبوله اياه خسارة معنوية لا يعدلها رصيد مادي •

وتميل بعض الروايات الى القول بانه بالغ في شخصيته حتى ادعى النبوة بله الالوهيــة واحتمى بسلطانهــا وذعن الناس لاقاويله زمنــا طويلا[٧٢] • ولكن الواقع أن الرجل لم يكن سياسيا فحسب بل رجل علم وحكمة وطب ــ استهوته فكرة خلاص الانسان من عجلة الميلاد عن طريق التطهير والتقشف ، فكأن هناك صلة روحية بينه وبين تعاليم النحلة الاورفية التي كانت منتشرة في مدينته •

وفي شــذراته مسحة ارستقراطية ــ على الرغم من غلبة العنصــر الديمقراطي على حياته العلمية ــ نظمها شعرا مقلدا فيها سداسيات بارمنيدس كما اشرنا من قبل • وبقى من اشعاره اكثر مما بقي لغيره من الفلاسفة السابقين على ســقراط • وتمثلت أفكاره في قصيدتين : (في الطبيعة)

و (في التطهير) • نشر منها ديلز حوالي (٣٥٠) شطرا من أصل (٥٠٠٠) شطر فقد معظمه •

وقد اثيرت حولهما بعض الشكوك من الناحية المنهجية باعتبار ان الاولى تتحدث أول ما تتحدث عن الكون والطبيعة حديثا لا يدع في نسقه الصاعد أي مجال للقول بخلود النفس وازليتها • بينما نجد القصيدة الثانية تعتمد الاعتماد كله على أصول فيثاغورية خالصة كتناسخ الارواح مثلا[٧٣] ، وفكرة هبوط النفس من عالم المعنى بعد ان اقترفت الخطيئة •

ومن هنا نُظر الى القصيدتين بوجهات نظر اجتهادية متباينة : فمدرسة زيلر وبرنت تؤكدان تناقضهما ، بينا مدارس أخرى تذهب الى ان كلا منهما يعود لفترة محددة من حياة الرجل وانهما يمثلان بدورهما تطوره الذهني ولا تناقض يصطحب الموقفين • وينفرد كورنفورد برأي فحواه ان قصيدة (التطهير) يجب ان تتخذ بداية لدراسة امبادوقليس ، وعنها نلج الى قصيدته (في الطبيعة) حيث سنجد ان هناك نوعا من التوافق في خطي القصيدتين معا •

ومهما يكن فنحن أكثر ميلا الى انهما لا يخلوان من تضارب في المنهج على أقل تقدير لا يصح نعته بالتطور لان التطور لا يحمل في تضاعيفه بذور تناقضه • اما أسباب هذا التضارب فيعود لغموض شخصية الرجل غموضا تعوزه النصوص المفقودة ، ولتستره وراء الغيبيات من جهة ، واخذه بالموضوعات المحسة من جهة أخرى ، بحيث لم يعد موقفه بيّنا واضحا • ولكن دراسة مذهبه ـ ككل يجمع هذه المفارقات ـ لا ينهض عائقا أمام وضع فلسفته في موضعها اللائق بها من معالم الفكر اليوناني بشكل عام •

ولشخصيته طرافة يندر مثيلها بين الآخرين ، فنحن ندين له في حقول المعرفة ببعض النظريات العلمية الحية التي مارسها في عصره ، فقد

ميّز مثلا بين (المادة) و (القوة) •• وحدد وضع العناصر الاربعة وضعا طبيعيا بحيث دفع جانبا فكرة (وحدة الكون) التي دعا اليها الفلاسفة السابقون فاحدث موقفه هـذا نظرية جديدة في المادة بقيت معالمهـا على الفكر العالمي حتى بداية عصر الكيمياء الحديثة • وتتضمن هذه العناصر جميع الكيفيات في العالم الحسي ، ولـكنها ليست هي بموضوع للتغيّر أو التحلل • وكان للرجل ولعه الخاص نحو الطب وفنونه بما ورد عنه من شذرات يذكرها ديلز في نشرته لها • وعرف عنه ميله الشديد أيضا نحو الخطابة والبلاغة وفنون الكلام ، لذا يصفه ارسطو برائد علم البيان القديم • وليس بمستبعد ان يكون كوركياس السوفسطائي أحد تلاميذه في هذا الحقل •• ويحاول الاستاذ زيلر مقارنته بـ (فاوست)[٧٤] من حيث ان معرفة امبادقليس لا تتم الا بالتمييز بين طبيعة رغبته الملحة في احيـاء البحث العلمي ، وبين جموحـه العاطفي في الاستعلاء حتى على الطبيعة ذاتها ! • فهو من هذه الجهة يشبه الى حد كبير صانعي المعجزات أو السحرة على حد سواء ! •

لقد مثل في عصره من الناحية العلمية وجهة نظر مذهب الكثرة الذي تبناه انكساغوراس من بعده ، وامتازت به مدارس طبيعية متأخرة نهضت على اعقابها مذاهب متعارضة أُخذت بالوحدة سبيلا • والمذهبان ـ أعني الوحدة والكثرة ـ ليسا سوى رجع صدى اصيل لافكار فيلسوف الوجود (بارمنيدس) ••

* * *

٣٥ ـ يتحـدد الجانب الطبيعي من مذهبـه بقصيدته الاولى (في الطبيعة) حيث ابتدع فكرة الاصول الاربعة أو ما سمي (بالعناصر) التي كانت تحمل دلالة واضحة لما سبق ان نادى بـه الفلاسفة الملطيون من صفات معينة للاشياء • فالحار مثلا يقابله البارد والرطب يضاده اليابس ••

فادمجها هو واعتبرها اصلا دون امكانية تحوّل احدها الى الآخر ، فكأنها جاءت عن طريق الاضداد • ثم حاول حصرها (بالنار والهواء والماء والتراب)[٧٥] •• ولقد أخذت فكرة النار مجالا كبيرا في بحثه عن اصل الكون • واما الهواء المحيط فهو متميّز في رأيه ، باعتباره جوهرا ماديا لا يمكن التوحيد بينه وبين الخلاء • واما الماء فلا يوصف بالسيولة كما يظن ، ولكنه شيء يختلف عن ذلك • وقد برهن على رأيه هذا باستعماله آلة تسمى Klepsydra •

والتربيعية في العناصر واضحة في مذهبه كما تقدم ، ولكن المعلم الاول روى مرتين في كتبه محددا اياها بثنتين فقط[٧٦] ولعله ادمج بعضها بعض •

ومهما يكن فاختلاف الموجودات في رأي امبادقليس سببه التباين في عدد نسب هذه (الاركان) الاربعة بعضها الى البعض الآخر • فالاختلاف اذن (كمّي) وليس (بكيفي) • وهذه العناصر غير مخلوقة بل أزلية ، فلا شيء يأتي من لا شيء ، ولا يفنى شيء الى لا شيء • فما هو موجود فهو موجود ولا مجال لكون أو فساد بمعنى المصطلح الواسع • بل تتداخل هذه الاصول فتصبح الاشياء المختلفة في الازمنة المختلفة وتتشابه على الدوام • فهي تحمل صفة عدم التغيّر كما يقول ارسطوطاليس[٧٧] • وتمتاز بانها مطلقة ونهائية •

فالايجاد الطبيعي بهذه النظرة عبارة عن عملية امتزاج وتبادل بين هذه العناصر بحيث يحافظ كل عنصر منها على صفاته مهما تكرر امتزاجه وتبادله ، فالاشياء جميعها تتكون من هذه العناصر : « الاشياء التي كانت وسوف تكون •• الاشجار النامية ، والرجال والنساء والدواب والطيور والاسماك بل حتى الآلهة المخلدون ذوو الفضل العظيم ! • »

وهنا نتساءل هل الطبيعة في المذهب ايجاد ظاهري فحسب ؟ •• ان

نظرية امبادوقليس تحتمل فكـرة الفساد المقابلة للكون على ان يُفسر الإضمحلال بانه انحلال أو انفصال في الاتحاد أو الاتصال ذاته • فالاشياء بهذا الاعتبار في تنقل دائم بين حالتي (الاتصال) و (الانفصال) : فتلك التي كانت خالدة أصبحت فانية ، وتلك التي كانت غير ممتزجة أصبحت ممتزجة ، كل منها يتبادل طريق الآخر • حتى اذا امتزجت تناثرت أنواع الكائنات لا يحصيها عدّ ، مصوغة في صور من كل شكل تسر الناظرين •• فلا كون ولا فساد في الحقيقة ، لانه لا يظهر شيء الى الوجود مما ليس بموجود والعكس بالعكس • والامر شبيه بما يفعله (الفنان) عندما يأخذ لمسة من كل لون ويمزجها لونا واحدا متناسبا متناسقا ، فيزيد من لون وينقص من آخر وعن هذه الزيادة والنقصان يبدع أشكالا مختلفة تشبه جميع الاشياء !

اما العناصر فتتكون من جزيئات صغيرة جدا بينها مسام صغـيرة أيضا ، تتطاير ذراتها المتشابهة في العنصر الواحد لتنفذ في مسامات العنصر الآخر عند وجود التأثيرات المتصادية والمتقابلة ، تماما كحجر المغناطيس والحديد سواء بسواء •

ويبدو ان هذا (التخلّق) أو الحركة في المذهب نتيجة لقوتين جوهريتين متصارعتين هما (الغلبة أو الكراهية) التي تعمل على فصل عناصر الكون بعضها عن البعض الآخر ، و (المحبة) التي تعيد العناصر مرة اخرى الى الاجتماع والالفة ـ ونظرة صاحب المذهب الى (المحبة) نظرة فيوزيولوجية تجعل منه العالم الذي أشاد المدرسة الطبيعية الحقيقية في عصره ••

ويرى البعض ان في أقوال امبادوقليس ما يؤدي الى اعتبار العناصر ستة باضافة القوتين الاخيرتين اليها • ولكن الواقع ان الغلبة والمحبة لا يمكن اعتبارهما عناصر تضاف الى ما تقدم من الاركان الاربعة بل همـا مبدآن أو علتان فاعلتـان في الوجود فحسب(٧٨) • وانهمـا والعناصر

الاربعة الطبيعية يحملان معاً صفة (الاعتدال) وبفعلهما (اعني فعل الاتصال والانفصال) يمكن ان نحتمل ان الوجود حركة ديناميكية فاعلة •• مع العلم ان تلازم هاتين القوتين مع العناصر أمر ضروري من حيث ان الاصول الاولية تتضمن كل الحقائق المادية • فمحاولة امبادوقليس في هذا المجال تمثل خطوة واضحة نحو التمييز بين العلة المادية من جهة ، والعلة الفاعلة من جهة أخرى •• فقانون (المحبة والغلبة) ليس قانونا ميكانيكيا أو اسطوريا كما يحلو لبعضهم ان يقول • بل للقانون المذكور مداوله الخاص في المذهب ، على الرغم من ان الفيلسوف نفسه اخفق الى حد ما في ايضاح هذا الموقف ايضاحا كافيا ، وسيتم هذا الايضاح على يد فيلسوف آخر هو انكساغوراس •

فالمحبة هنا قوة كونية للجذب والحركة في جميع الاشياء الطبيعية ، فهي سبب الاتحاد • واما الكراهية فعلى خلافها بمعنى انها علة التجدد في الاتحاد دائما لانها متى ما فعلت الانفصال ولّدت محاولات جديدة لوحدات جديدة وهكذا باستمرار ، فكأن عملها في غايته هو توحيد غير مباشر(٧٩) •

فالكون اذن يخضع لتغلب هاتين القوتين احداهما على الاخرى بتتابع دائم ـ أو كما يقول الحكيم نفسه : « لقد نما (شيء) في وقت فأصبح واحدا بعد ان كان كثيرا ، وانقسم في وقت آخر فأصبح كثيرا بعد ان كان واحدا •• »

فهناك اذن صراع دائم صاعد هابط ، يختلف فيه الامتزاج وتتباين النسب • ويؤدي في نهاية الشوط الى ظهور الكائنات الحيّة وأنواعها نشوء وارتقاء تخضع فيهما الاشياء القابلة للانفصال الى كونين وفسادين ـ فالحال الاولى تظهر فيها الاجزاء المختلفة من الحيوان منفصلة ، فتنبت عند ذاك في الارض رؤوس بدون رقاب ، واذرع مفصولة عن الاكتاف وعيون مستقلة عن الجباه •• وفي الحال الثانية تتحد فيها هذه الاجزاء

أو بالاحرى يمتزج الخالد بالخالد ، فتنضم الاعضاء المنفصلة بعضها الى بعض كيفما اتفق ، فتظهر أشياء كثيرة : كائنات تدب وتزحف ، وثيرة لها وجه البشر وبشر لهم رؤوس الثيرة ، ومخلوقات امتزجت فيها طبيعة بعضها بالبعض الآخر فاستحالت الى مسوخ ! ..

ويدلنا الموقف السابق عند امبادوقليس على أساسين هامين :

أولهما : ان بقاء النوع (المختار) لا يتم عن قصد وغائية بل بسبيل الاتفاق والضرورة[٨٠] .

وثانيهما : ان البقاء في هذا الكون للاصلح دون سواه ، وهو موقف يذكرنا بشكل ساذج بما ورد عند لابلاس وداروين حول فكرة التطور وبقاء الاصلح بالذات .

وفكرة الاتفاق والضرورة لعبت دورا مهما في العلم اليوناني حيث كانت ـ وخاصة الاخيرة ـ يستعان بها للتعبير عن العلاقات السببية للظواهر الكونية ، ومن هنا فهي في رأي صاحب المذهب « ارادة الهية قديمة ازلية مشفوعة بأغلظ الايمان ! .. »

فكون أمبادوقليس يخضع لعمل هاتين القوتين المتعاقبتين عليه :

عندما تسود المحبة تعود الاشياء كلها متحدة اتحادا متينا بحيث لا تتميز أطراف الشمس ولا بأس الارض الشديدة ، بل تتماسك الكثرة داخل ثوب من الائتلاف تماسكا كليا يشبه الوحدة الساكنة .. ثم تحاول الغلبة ان تبعد هذا الائتلاف بعضه عن البعض الآخر حتى تسود هي فيعم الانفصال وتتغلب الفوضى[٨١] ولا يعود تمييز ظاهر بين الانواع ولا بين جنس الذكر والانثى ! ..

ولكن الاصل في نظرية وجود العالم عند الفيلسوف هي (المحبة) الخالصة الملتحمة في داخله والمساوية للعناصر في الطول وفي العرض[٨٢] .

اما الكراهية فأمر خارج عن العناصر ومساو لها بالثقل فقط (والمقصود حسب ما نعتقد ظاهر المادة المتعرية من الصور) ـ ثم شاءت الصدف (ولا يدرى امبادوقليس نفسه كيف حدث ذلك) ان تتدخل الغلبة فنفعل الانفصال ، فكان أول عنصر انفصل بفعل الغلبة هو الهواء ، فظهرت الشمس والسماء والارض والبحر ثم الكائنات الحية .. وهكذا فالعالم يمر بمراحل أربع :

الاولى سيادة المحبة سيادة تامة ، والثانية دور الصراع بين المحبة والغلبة ويكون النصر للغلبة ، والثالثة سيادة الغلبة وتحقيق الانفصال في العناصر ، والرابعة عود على بدء في الصراع بين القوتين ، وانتصار المحبة أخيرا وتقهقر الغلبة . وعالمنا الحاضر يمر في بدء المرحلة الرابعة ! . أي في مرحلة الصراع بين القوتين[٨٣] .

ونحن نميل الى ان الغرض من استعمال فكرة المحبة والغلبة في كونيات امبادوقليس هو لايضاح التوازن الديناميكي في عمليات الكون . ولاشك ان علم الفيزياء الحديث ليعجب للحدس الذي دفع الرجل الى ايراد نظرية الاتصال والانفصال المتتابعة زمانا وما يلحق هذه الفكرة من عمليات طبيعية بحيث يندفع الباحث الى الاستفسار عن كيفية ادراك امبادوقليس لهذه الحقائق ! . والذي نعتقد أن صاحب المذهب حدد عمليات الاتصال هذه وكمال فعلها بما تنبثق عنه الاجسام من تيارات يجذب بعضها بعضا على قاعدة « وكل قرين بالمقارن يقرن » أو « شبيه الشيء منجذب اليه » ، معتمدا على نظريته في المسام من حيث ان الاجسام المتشابهة لها مسام متماثلة ينتقل الاحساس المادي اليها عن هذا السبيل ، وعند هذا يكون في مستطاعنا ادراك الموضوع المطلوب اذا تيسر التشابه بين مسام عضو الادراك والجزيئات الصادرة عن الموضوع المراد ادراكه . ومنطلق هذا الادراك الحسي هو القلب ـ من حيث انه محط التفكير

ومرتكزه ـ الذي يتغذى بالهواء شهيقا وزفيرا بطريق المسامات التي في الجسم مضافا اليها جهاز التنفس ذاته •

ويبدو مما سبق ان المقر الرئيس للادراك هو الدم الذي فيه تختلط العناصر الاربعة بالقرب من القلب : « الموجود في بحر من الدماء التي تجرى في جهتين متضادتين ، والناس يسمونه بالعقل لان الدم الموجود حول القلب هو العقل في الانسان » ـ باعتبار ان الدم يضم العناصر بشكل أكثرها وفاقا من غيره من مواد البدن •

ويعتقد المعلم الاول أن امبادوقليس لم يميّز في نظريته هذه بين الفكر والادراك الحسي بل خلط بينهما ففسر المعرفة تفسيرا ماديا •• ومهما يكن فهذا الموقف لا يستبعد وجود أقسام أخرى في الجسم تدرك نوعا من الادراك الحسي ، فمعرفتنا تختلف وتتباين اذن باختلاف مقومات الجسم •• وعلى الرغم من رأي امبادوقليس هذا فانه في مجالات أخرى نجده يحاول اضعافه مؤكدا ان الحقيقة لا تبصر بالعين ولا تسمع بالاذن ولا تدرك بالعقل Nous (٨٤) بل هي (الهام) يفوق الجميع باعتباره نهاية شوط المعرفة وحقائق الكون المطلقة • وقد اصحر عن موقفه هذا في قصيدته الثانية (التطهير) التي اصطنع فيها موقفا يتباين مع نتائج قصيدته الاولى ـ فذهب الى ان النفس كائن سماوي هبط الى الارض لاقترافه الخطيئة فوضع في سجن هو البدن ، وما على الانسان الا ان يسلك حياة خلقية رفيعة تساعده على العودة الى عالم المعنى مرة أخرى • وكل اتجاه في القصيدة يعتمد أصلا على فكرة تناسخ الارواح • وعند المقارنة بين القصيدتين نجد فاصلا بين الانسان وعقيدته من جهة ، وبين انتظام الكوني من جهة أخرى • لذلك تنازعت امبادوقليس فكرتان مادية طبيعية ، وعرفانية صوفية ـ ونحن نميل الى تغليب الفكرة الاولى عليه ، مع العلم ان الفيلسوف لم يوضح السبيل الذي يربط علاقة النفس بالانسان

توضيحا شافيا ، بل ظهرت الثنائية في المذهب جلية المعالم في كل مراحله على السواء .

* * * *

٣٦ ـ ولامبادوقليس مجالات أخرى في العلم حيث اشتهر بقوله ان للهواء صفة جسمية باعتبار انه أول عنصر انفصل بوساطة فعل الغلبة . وقد برهن على ذلك باستعماله آله (السرّاقة) وهي عبارة عن وعاء مغلق في قعره ثقب واحد أو عدة ثقوب وفي أعلاه ثقب آخر ، فاذا اغلق الثقب الاعلى بالاصبع وغطست الآلة في الماء لا تمتلىء ، ولكن عندما ترتفع الاصبع عنها يندفع الماء بقوة مما يثبت ان للهواء صفة مادية(٨٥) .. يضاف الى هذا انه ادّعى ان الضياء ينتشر خلال سرعة محددة ومعينة ، وصيغت فكرته هذه بلغة ارسطو بما فحواه : « ان امبادوقليس يذهب الى ان نور الشمس يخترق الفضاء المعترض بين الشمس والارض قبل ان يبلغ العين أو الارض ، ويبدو انه كذلك لان كل ما يتحرك في المكان انما ينتقل من موضع الى آخر ، وهكذا اقتضى ان يكون ثمة فترة زمنية مقابلة يتحرك فيها الشيء من مكان الى آخر . وكل وقت معيّن ينقسم الى أجزاء ، لذلك ينبغي ان نفترض فترة لم يكن شعاع الشمس قد ادرك خلالها بعد ، بل كان وما يزال منطلقا في الفضاء المتوسط »(٨٦) .

وقد يتصادى موقفه الى حد ما مع الفكرة القائلة بان الضياء جوهر سيال ، طبقا لنظرية الابصار والكوانتم الحديثة(٨٧) .. وعلى الرغم من ان نظرية الابصار عند امبادوقليس معقدة فان لها اهمية كبيرة في المجال العلمي ، فلقد اعتبرت العين مركبة من النار والماء : « فالانسان اذا أراد اجتياز الطريق اشعل نارا ووضعها في زجاج يحميها من الريح العاصف . ولكن النور يشع من خلال ذلك الزجاج الشفاف ويضيء معالم الطريق بأشعة نافذة لا تنقطع . كذلك النار الاصيلة المنتشرة في الاغشية والانسجة

تخفي نفسها في حدقة العين المستديرة . وانها تحجز الماء العميق المحيط بالحدقة ، وتسمح للنار ان تنفذ من الداخل الى الخارج لانها أكثر لطافة ودقة ـ ومن هنا فشعلة العين ممتزجة بجزء ضئيل من الارض يذهب بعيدا كي يلتقي بموضوع الابصار .. »

ومما ينسب اليه أيضا ان الشمس ليست نارا بل هي انعكاس للنار ، وانها أوسع من القمر بمرتين ، وان كسوفها يرتبط بضياء القمر ، وما الليل الا الظل المخروطي لشكل الارض ، بينما النهار هو الضياء الذي يأتي من النار . واما الارض فقد كانت في البدء ممزوجة بالماء ولكن ازدياد الضغط جعل الماء يتدفق بعيدا عنها ، ولهذا فالبحر في رأيه هو عرق الارض ! وان سبب بقاء التراكيب العضوية يعتمد على الحقيقة التي تؤكد وجود الماء في الارض وكذلك النار .

٣٧ ـ هذا هو امبادوقليس في مواقفه وأفكاره .. وكلما أمعنا النظر في هذه الاصول العميقة التي دفع بهـا الى ميدان الفلسفة والعلم نجـد انفسنا أمام رجل له أكثر من جانب واحد من جوانب المعرفة : فاختياره للقوتين المتصارعتين كسبب لما يحدث في هذا الكون من ظواهر وتقلبات كان تفسيرا دقيقا للحدوث الديناميكي في هذا العالم على وجه من التكامل في كل أنحاء الكون .. ومهما يكن من احتمالية الفيلسوف بخصوص فكرة التعادل الديناميكي بين هذه القوى ، فهو أول من أباح سيطرة احدى هذه القوى في فترة من فترات العالم الاربع . على الرغم من انه ليس من السهل حقا تصور بأن الكون يدار بقوة واحدة من هذه القوى ، ولكن الطرافة في الموقف انه اعتبر (المحبة) و (الغلبة) كعلل للتغيرات في الظواهر الطبيعية خاصة في حركة المـادة تحت تأثير الجذب والنفور . وبهذه الكيفية الخيالية كان أول حكيم افترض حقيقة العلل في العـالم الطبيعي ووحّد بينها وبين هذه القوى .. ولاشك ان هذا الحدس له

خطورته في الفيزياء الذرية التي لا يمكن ان تسقط من حسابها فرضية جذب القوى المتعاكسة بعضها للبعض الآخر ، مضافا الى ذلك فكرة تعاصر هذه القوى وجوديا في الجذب والسلب معا • ففي حقل الذرة نحن نعلم حقيقة هـذه القوى في الشحنات الكهربائية ، فالقـوى المتشابهة بالنوع تنافر ، بينما غير المتشابهة تتجاذب • وحتى في الفيزياء النووية ليس في الأمكان الاستغناء عن فرضية دفع وجذب هذه القوى أيضا ••• واما فكرته عن الضوء فقد تبنتها الفيزياء الحديثة خاصة في انجازاتها الكهرامغناطيسية وفي نظرية الكوانتم الذرية كما سبقت الاشارة اليها •

وأخيرا فان حيـاة صاحب المذهب حافلة بكل ما يعجب سـواء في طبيعياته أو غيبياته ، ولا ضير عليه ـ كما يقول رسل ـ « من انه ذهب الى ان مجرى الطبيعة خاضع في نظامه للمصادفة والضرورة أكثر ممـا يخضع للغـاية ، ففلسفته في هذا الجانب اقـرب الى العلم من فلسـفات بارمنيدس وافلاطـون وارسـطو • ولو انه في جـوانب أخـرى اذعن للخرافات السائدة في عصره ولكنه في اذعانه ذلك لم يكن اسوأ حالا من كثير من رجال العلم في العصر الحديث •• »[٨٨] •

* * * *

انكساغوراس (٥٠٠ – ٤٢٨) ق•م

٣٨ – تقرن حياة انكساغوراس الفكرية غالبا بحضارة اثينا وتقدمها وانتصاراتها على (دارا) ملك الفرس عام (٤٩٠) قبل الميلاد من جهة ، ومن جهة أخرى بحياة السياسي المعروف بركليس حين تسلم مقاليـد حكم المدينة فحققت على يديه عصرها الذهبي الزاهر ، فنالت اسعد فترة في تاريخها • تجمّع تحت ظلالها عباقرة شتى من صنوف شتى ، بينهم الفنان والنحات والموسيقي والشاعر والحكيم • ومن أمثلة هؤلاء الصفوة فيـدياس وايكتينس وكاليكرتيس وامنيسيكليس وهيرودوتس ودامـون

وسوفكليس شاعر التراجيديا واسخيلوس المسرحي الشهير ويوروبيدس وغيرهم[٨٩] • ولقد انتجت هذه المجموعة النادرة من الفنون ما كان لـه السيطرة في مقتبل الايام وحتى عصرنا الحاضر • وبقيت اثينا تحمل مشعل الفن والفكر من بعدهم قرابة ألف عام ! •

٣٩ ــ ولد انكساغوراس حوالي (٥٠٠) قبل الميلاد في مدينة تدعى كلازومينا احدى المدن الايونية الاثنى عشرة شمال مدينة أفسوس •• كان ايونيا ــ يونانيا من آسيا الصغرى اكبر سنا من امبادوقليس ، وتحدثنا الروايات عنه بانه أهدى كل شيء ورثه عن أبيـه الى أقربائه واصـدقائه خلال حيـاته كي يتفرغ للدراسة والتأمل فحسب[٩٠] ! ثم شـد رحاله الى اثينا وعمره لا يتجاوز العشرين عاما ــ ولا ندري الدافع الحقيقي الى هذه الهجرة ــ فمكث هناك ما يقرب من ثلاثين سنة من (٤٨٠ الى ٤٥٠ ق•م)[٩١] وقد احاطته المدينة بالتجلة والتقدير وكان محل قناعة الحاكمين ومستشارا سياسيا لحاكم المدينة على الرغم مما يروى عنه من زهد ازاء المناصب العليا في الدولة ، وميل نحو البحث والتأمل والاستبطان في العمل الفلسفي الحق •

وقيل انه اول فيلسوف يدخل اثينا في ذات العام الذي حدثت فيـه الواقعة الحربية المعروفة سلاميس ــ وكان لافكاره تأثيرهـا الواضح على الاثنين بحيث فاقت تأثيرات السابقين عليه • ولم يكن الرجل مجهـول الهوية في المدينة فقد كان معروف الشخصية عند اهلها قبل اتصاله ببركليس وعلاقته الثقافية والسياسية به[٩٢] • وسبب هذه الصلة كما يرويها لنا افلاطون في محـاورة فيدروس ان الرجـل السياسي (أعني بركليس) صـادف انكساغوراس على غير قصد • وكان الاول منهما مشغول الذهن بالنظريات المتعلقة بالفلك والطبيعة ــ وكانت هي بحدّ ذاتهـا نفس الموضوعات التي كان انكساغوراس يتحدث عنها مع تلاميذه • فاتصل الرجل بالحكيم كي

يحصل منه على معارف جديدة تعينه على التقدم في هذا الفن ، فتلمذ على يديه فترة من الزمان ، ثم استحالت التلمذة الى صداقة بينهما .. بحيث يروى عن فلوطرخس قوله ان بركليس كان من المعجبين اعجابا بالغا بالرجل الحكيم لما تشبّع به انكساغوراس من الفلسفة العليا والتفكير الرفيع والروح المتحلية بالوقار والبيان الخالي من كل قحة سوقية طائشة . هذا الى طلعة بهية هادئة لـم تستسلم الى الضحك ابدا ، وخطوات متئـدة ، وهندام لم تكن لتشوشـه أية نزوة من نزوات العاطفة أبان الخطـابة ، وايقاع في الصوت بعيد كل البعد عن الصخب ، ومميزات كثيرة كانت تدهش مستمعيه كل الدهشة[٩٣] ..

ومما يذكره فلوطرخس أيضا ان صلة بركليس بالفيلسوف كانت سببا في شهرة الاول منهما . فان صح قول فلوطرخس فهو دلالة كافيـة على منزلة الحكيم المذكور وشهرته في الاوساط الثقافية في اثينا .. ولكن الاوضاع الاجتماعية التي كان يرسخ تحتها سياسيو اثينا جعلت من رجالها شيعا وأحزابا . وعادت العلاقات الشخصية سببا في تهمة الانسان اليوناني سياسيا ، ومن هنا نجد بعض الفئات الاثينية نظرت الى علاقة انكساغوراس الحكيم ببركليس السياسي نظـرة الريبة والخشية والحسـد ، مستبيحة لنفسها ظنّ السوء بالفيلسوف مدعيـة بانه كان يمثـل القاعدة الفكرية للاتجاه السياسي في حزب بركليس . ولكن تلك الفئات المناوئة لم تجد سبيلا - في الجو الديمقراطي السائد - في استمرار اتهاماتها السياسية ضد الرجل فحاولت أن تستنبت أفكارا أخرى لمواقفها الحاقدة مستغفلة عقول بعض الناس فطعنت في عقيـدة الفيلسوف الدينية مستغلة أفكاره الطبيعية لاثبات شناعتها تلك .. وتهمة العقيدة وافتعالها يومذاك كانت طريقا لاحبا عند اليونانيين يسلك كلما أحسّوا أن لا سبيل لايذاء المتهم غير هذا السبيل . وهكذا كان فاتّهم الفيلسوف على أقواله التي اذاعها بخصوص الشمس

والقمر وانهما احجار ملتهبة متجمدة ـ فأخذ عليه هذا واعتبروه خروجا على سلطان العقيدة ولاهوتها •

وفي حوالي عام(٤٣٢) قبل الميلاد سيق الى السجن ليقضي فترة فيه ثم يحاكم بعدها بتهمة قد تؤدي الى الحكم عليه بالموت ، ولكن صديقه الوفي بركليس دبّر له الهرب من السجن فترك اثينا في ليلة ليلاء متجها الى لامبساكس من مقاطعات ايونيا الى غير رجعة أو اياب[٩٤] •

وبعد رحيله تشعبت خيوط اتهاماته ، فهناك من لمزه بنزعة فارسية خفيــة كان يبطنهــا عن الاثنين ثم اكتشــفوا أمره فاتهمــوه بالخيــانة والمروق[٩٥] • ومهما يكــن فنحن نميل الى الرأي الاول من الاتهام ، باعتبار انه كان وسيلة لغاية سياسية من جهة ، ولتحطيم نزعته العقلية من جهة أخرى ••

وفي المدينــة الجديدة لامبساكس أسس مدرسة فكرية بقيت آثارها وسماتها واضحة على العقل اليوناني ، مما يدل انه مكث في المدينة المذكورة فترة ليست بالقصيرة • وكان موضع اهتمام وتقدير شعبها ، بحيث عندما توفي انكساغوراس شيّد أهل المدينة هيكلا في ساحة السوق العامة يرمز الى الحقيقة التي كان الحكيم يبحث عنها طيلة حياته • وأصبح يوم وفاته عطلة لطلبة المدارس في المقاطعة واستمر هذا التقليد المعنوي قرابة خمسة قرون من بعده[٩٦] •

٤٠ ـ اما مصــادر أفكاره فيربطهــا البعض بانه تتلمــذ على يــد انكسيمانس • ولكن الاستاذ برنت يرى ان هذا الادعاء غير سليم ، لان انكسيمانس توفي قبل ولادة انكساغوراس بعدة سنين • فالتلمذة هنا نفسرها تفسيرا مجازيا بمعنى اطلاعه وتتبعه لشذرات انكسيمانس ، بحيث اوقع هذا الامر بعض المصادر التاريخية غير المتثبتة في هذا الحكم المبتسر •

ولاشك فنحن ندين بفضل كبير لسمبيلقيوس في الحفاظ على الشذرات المتبقية لانكساغوراس والتي لا تزيد على (٢٢) شذرة • ولا ريب انها كانت أكثر بكثير مما هي عليه الآن بحيث ان القدماء قسموها عدة اقسام مما دفع سقراط الحكيم الى التعبير عنها (بالمؤلفات) وبصيغة الجمع•• ولكن الاستاذ جونز(٩٧) يستنتج بعد حساب دقيق للعملات اليونانية وما تعادله في هذا العصر ـ ان سعر الكتاب لايتجاوز دراخما واحدة وهو سعر زهيد جدا يدل على ان الكتاب المنسوب لانكساغوراس قليل الصفحات بحيث يمكن نسخة بيوم واحد ! وقد قيل انه لا يتجاوز (٣٠٠٠ أو ٨٠٠٠) كلمة • ونحن نستحسن رأي الاستاذ جونز باعتبار ان النشر لم يكن عصر ذاك الا عن طريق النسخ فعدد الصفحات هي التي تقرر رخص المؤلف او غلاءه •

وعلى الرغم من نزرة هذه الصفحات فانها لعبت دورا كبيرا في الفكر اليوناني بحيث امكن ان نعتبر صاحبها أكثر الفلاسفة نصيبا وحظا في الاهتمام والتعليق والشرح والنقاش من قبل المؤرخين والمفكرين الذين تدارسوا عصر ما قبل سقراط •• ونكتفي هنا بعبارة ارسطو عنه حين وصفه فقال: «انه الرجل الوحيد الذى يتمتع بحس سليم وسط اناس يهذون!»(٩٨)

* * *

٤١ ـ اشاد انكساغوراس فلسفته على صروح من المعرفة الحرة تطهرت من آثار الروح التصوفية التي ظهرت بعض سماتها على أفكار الفلاسفة السابقين فكان موقفه هذا تأكيدا لحاكم العقل وسلطانه في استقصاء الحكمة ومواردها • فكأنه اعاد بنظرته التأملية هذه موقف الفلاسفة الايونيين الاوائل من جديد !

وتنطلق فلسفته ـ بادىء ذي بدء ـ من اعتبار يفرضه صاحب المذهب مقدما من ان الاشياء كانت مختلطة جميعها ، ولا متناهية في العدد والصغر،

بحيث لا يبدو واحد منها للعيان لصغر حجمه • وكان الهواء والأثير يحلان في كل شيء لانهما كانا اعظم الاشياء كمّا وحجما •• فكأن الكون ـ في جملته وابعاضه ـ جنس واحد في رأي الفيلسوف • وان وجد تباين في هذه الاجزاء فهو يرجع الى حجمها ولا يعود لامر تكوينها• فانكساغوراس هنا يقدم نظرية امتزاج الكون أو ما يسمى (بالخليط الازلي) •• فليس في هذا العالم حال انتقال من وجود الى عدم ، بل مجرد عملية امتزاج وانفصال عن الخليط الذى هو مجموعة (البذور) التي فرضها الحكيم انها لا تنتهي عددا ، وليس لها أي شبه بالعناصر لان في كل منها تركيب يشبه الكل او بالاحرى «في كل شيء جزء من كل شيء» • وان عملية الانفصال هذه لاتخص عالمنا فحسب ، بل تشمل عوالم من حولنا لها أقمارها وشموسها ولها حرثها وزرعها وكل ما يمكن ان ينتفع به •

واما عملية الامتزاج فكانت في البدء بين الرطب واليابس والحار والبارد والنور والظلمة • وعند حدوث الانفصال لم يكن في الامكان ـ عقلا وواقعا ـ التعرف على مقدار الاشياء التي خضعت لهذه العملية والتي صدرت بقوة وسرعة تفوق التصور والتصديق • لذا فادراك العالم لا يتم بالحس اولا ، بل يحدث ذلك بعد تراكم البذور بعضها في ركاب بعض •

وفي الواقع ان مصطلح (البذور) الذى يستعمله صاحب المذهب يصعب التوصل الى حقيقته من الناحية النظرية والعملية • فهو أمر يتضمن ـ كما في الخليط الازلي ـ المتضادات والجواهر الطبيعية مما وبشكل مصمت بحيث لامجال للقول بوجود الخلاء في انحائه • وقد اعتمد الفيلسوف على ذات الآلة التي استعملها امبادوقليس من قبـل في نفي وجود الفراغ • فموقفه يشبه موقف بارمنيدس حين تنكر لوجود الخلاء مع فارق في الاتجاهين والهدفين •

يضاف الى هذا ان هذه المتضادات والجواهر الطبيعية هي العناصر

الاولية للوجود ــ وكأن في موقفه هذا ردة فعل لما ادعاه فلاسفة من قبل امثال بارمنيدس وزينون وغيرهما •

فانكساغوراس لم ينظر الى العناصر (خاصة تلك التي تكلم عليهـا امبادوقليس من قبل) وكأنهما أصول أولية لانه هو نفسه عارض هذه المواقف، بل قدمها بشكل يختلف عن معاصريه حين قال : «ان في كل شيء جزء من كل شيء» [٩٩] فلم يحددها باربعة بل جعلها غير متناهية ــ وان الشيء يتوضح لنا بما هو غالب عليه من نسب هذه البذور ، أو بمعنى آخر غلبة صفة الكم على الكيف بحيث لايمكن قيام التعاكس بينهما • ورأيه هـذا يؤدي الى وشيجة واضحة بينه وبين انكسيمانس سواء في فكرة غلبة صفة الكم او في النظر الى الاشياء الاولية وحالتها قبل تكوين العالم •

ومن المحتمل ان انكساغوراس استقى نظريته في الخليط من معاصره امبادوقليس الذي عرفت اشعاره في الاوساط الفلسفية خلال النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد • فانتهى به هذا التأثر الى تبني موقف ان في كل شيء جزء من كل شيء ــ على شريطة ان يؤخذ هذا الموقف بعد تكّون العالم ولا يؤخذ بان الاصول او البذور كانت كذلك قبل التكوين •[١٠٠]

وبهذا التخريج العقلي اوصل انكساغوراس مذهب الكثرة الى نتيجته المنطقية حينما فرض ان المادة متحركة ومستمرة ، ولكنها في ذات الوقت تحتوي على صفات متنوعة لجميع الاشياء على اختلافها • او بمعنى اخر ان نظرية الكون الطبيعي لديه ناتجة عن كثرة صفات محتوية في كل جزء من المادة او البذور •[١٠١] وانه من المحال ان يتبدد شيء الى لاشيء ، فكأن هناك حفظا للمادة وتسربها مع سيل من الانقسام لاينقطع ولا ينتهي •• ومهما حاولنا ان نصل من وراء هذا الانقسام الى شيء معيّن (كما فعـل امبادوقليس مثلا) فاننا لا نصل الى جزء مهما كان صغيرا يخلو من الاجزاء الاخرى ، اي اننا لانصل الى ما يمكن ان يعتبر ركنا اصيلا • وبهــذا

الاعتبار تصبح البذور في نظرية صاحب المذهب هي العناصر اللانهائية مع الفارق بين المعنيين عنده وعند صاحبه امبادوقليس •

ولهذه البذور صفتان : التشابه من جهة والتباين من جهة اخرى• فالاول باعتبار ان جميعها تحمل صفات الحار والبارد والجاف والرطب والحلو والمر ، والثاني ان نسب هذه الصفات تختلف في البذرة الواحدة اذا قورنت الى أخرى • يضاف الى ذلك ان لها صفة الازلية والخلود ، فهي لا تزيد ولاتنقص وتقوم الاضداد فيها متحدة لامستقلة •• فالاشياء تحدث على قاعدة «ان لاشيء يخرج من لاشيء» Nihil ex Nihilo بل تتكون الاشياء بطرق الامتزاج ـ كما اشرنا من قبل ـ وتحديد الكائن يعود الى غلبة الصفات عليه ، فمثلا اذا غلبت صفتا الصلابة والبياض كان منهما العظم وهكذا •• فالطبيعة اذن هي هذا الامتزاج نفسه أو بنظرة اخرى هي الانفصال والامتزاج فحسب ، باعتبار ان ليس في الكون انتقال من وجود الى عدم ولاعكس ! •

ولكن من الذي أوجد هذه الحركة الانفصالية في الكون بعد ان كانت الاشياء مختلطة بعضها ببعض ؟ هل حرك الخليط نفسه بنفسه ؟ هذا مالا يقره انكساغوراس لانه يتباين مع مذهبه • اذن لابدّ من علة خارجية يتأدى لها ذلك فتسبب الحركة الدائرية في الكون ـ وهذه العلة في رأي الحكيم هي العقل أو ما أسماه (بالنوس) Nous (١٠٢) صدرت عنه الحركة أولا ثم شعبت تدريجيا فانتجت الانفصال بين الكثيف والمتخلخل وبين البارد والحار والظلام والظلمة والرطوبة والجفاف • ونتيجة لهذا الانفصال حدثت كتلتان كبيرتان اولاهما حوت اللطيف والحار والمضيء وتدعى الاثير Aether والثانية حوت الصفات المضادة وتدعى الهواء • وموقعهما من التخطيط الطبيعي للكون ان الاولى في الخارج واما الثانية فتشغل المركز (١٠٣) •

وهذا العقل الذى اراد الفيلسوف من مميزاته انه غير مختلط ، لايوجد فيه جزء من كل شيء كما هو الحال مثلا في الامور الطبيعية . فكأن الحكيم مال الى وضعه وضعا غير مادي .[١٠٤] وللعقل هذا سلطان على كل شيء ، فهو سبب الحركة كلها لانه يمتلكها ، وهو الطف الاشياء وادقها وارقها ، له معرفة شاملة بكل اشياء الكون ـ تماما كما كانت عليه نارهرقليطس ـ صفته البساطة لانه غيرمركب ، قائم بذاته ولايشبه المادة « لان في كل شيء جزء من كل شيء ما عدا العقل » ـ وانهذا العقل بالنسبة لجميع الاحياء واحد . ولكنهناك اختلافا سلّميا ما بين عالم الحيوان وعالم النبات منحيث التباين في البنية الحيّة . فالانسان مثلا أكثر تعقلا من الحيوان الاعجم لا لانه يمتلك نوعا خاصا من (العقل) بل لامتلاكه اليدين التي تساعده على التصرف بالعقل بشكلٍ أكثر فعالية من النبات !

ومهما يكن فالعقل هو الذي يميّز الاشياء المتشابهة ولتمييزه بدء زمني على ظاهر النصوص المنسوبة للرجل . فهو اذن علّة الموجودات ، ولكنه علّة على الابتداء ، لانه هو سبب حركة الفصل فحسب ولا سبيل بعد اتيانها الى استمرار تأثيره على الكائنات لانها عند ذاك تتغير بشكل آلي مستمر حسب قانون عام فرضه العقل مقدما .

فكأن انكساغوراس اصطفى العقل بديلا لفكرة المحبة والغلبة التي نادى بها معاصره امبادوقليس ، ثم دفع بهذا العقل الى (التعطيل) بعد انحرك الاشياء! [١٠٥]

ومما يلحظه الباحث ـ بادىء ذي بدء ـ ان كلمة (العقل) تظهر عند الفيلسوف وكأنها غير مرتبطة بالقضايا الطبيعية . ولكن الاتصال الذى يضعه المذهب بين العقل ونظرية البذور يدفعنا الى الميل نحو اعتبار العقل امرا طبيعيا . فيعود موقفه وكأنه تحوير لفكرة الكثرة التي أخذ بها معاصره ، ولكنها كثرة مع العقل باعتباره قوة من اهم افعالها بدء الحركة الكونية في

اطار قوانين الطبيعة العـامة ولا علاقة لها بفرضيات العلل الوجودية التي التزم بها المتأخرون عنه كارسطو ومدرسته (١٠٦)

وعلى الرغم من هذا فأصالة انكساغوراس تتضمن في نظريته عـن الاصول والجواهر التي تحدث عن (الكون) الذي هو ظهور عن كمون ، وعن (الفساد) الذي هو كمون بعد ظهور ، مع الاحتفاظ بالكيفيات وصفاتها ـ وليست اصالة الرجل متأتية عن نظرية العقل وسلطانه على الطبيعة •

ويتصادى حديثنا عن نظرية العقل عند انكساغوراس مع رأيه عن عملية الادراك التي تعتمد اصلا في المذهب على فكرة (المتضادات) ـ وهو موقف أكثر تقدمية مما حدثنا عنه امبادوقليس ـ فالادراك عنـد الحكيم وظيفة من وظائف العقل في الكائنات الحيّة • تتعلق هذه الوظيفة بالاحساس العضوي المرتبط بعصب الحس في المخ • فالادراك يعتمد عـلى (انفعال) المتضادات مصحوبا بالالام ولا يتأثر بالشبيه • وان الكيفيات التي ندركها بوساطة الحس ترجع الى الاشياء ذاتها ، وهـذا النوع من الاحساسات غير قادر ان يصل الى حقيقة الاشياء(١٠٧) بمعنى اننا ندرك الاسود مثلا عندما يتغلب على غيره ، بينما لاندرك الابيض الذى يتضمنه الاسود ، لان الاول اكثر شمولا من الثاني • ومن هنا فان العقل وحده هو الـــذى يعطينا المعرفة الحقة • ولكن نحن نعلم ان انتشار العقل في الكائنات الحيّة يختلف درجة وكمّا في رأي انكساغوراس ـ لذا تعود المعرفة متباينة الجوانب شدة وحدّة وحسب كمية هذا الانتشار ! على ان العقل بما فيه من صفة التحقق الذاتي مرتبط بالكون كله ويعمل بفاعلية تشبه فاعلية النفس أو فاعلية العقل الانساني ، بحيث يؤدي هذا الموقف الميتافيزيقي الى وحدة شبيهة بوحدة الايونيين ، منه الى ثنائية الاورفية أو الفيثاغورية •• على الرغم من ان التمييز الذى قدمه انكساغوراس بين فكرة العقل وبين المادة يجعله في حال أخرى الصق رأيا بمذهب الاثنينية ، مع التأكيد بانها

اثنينية تختلف عما تنحو اليه ثنائية امبادوقليس وغيره من المتقدمين .

* * * *

٤٢ - ومن جوانب انكساغوراس العلميـة الاخرى تأكيـده بان افعالنا الطبيعية تعتمد على احساساتنا ، فكلما ضعفت المدركات الحسية ، كلما تضاءلت معرفتنا الصادقة كما سبقت الاشارة - وأورد الحكيم مثلا على هذا فحواه انه لايمكننا نحن ان نميّز التغير الضئيل الذى يحدث في لون معيّن عندما يضاف اليه لون آخر تدريجياً قطرة قطرة ، لان هـذا بحد ذاته دلالة على ان الادراك يعتمد على الحس وقواه المختلفة ...

ولموقفه نحو علم الفلك اهمية تاريخية لايمكن التنكر لها ، لان انكساغوراس أول فيلسوف في العصر القديم لم يحاول التفرقة في موقفه بين الكواكب والنجوم وبين أرضنا ، بل اعتبرهـا أشياء مادية حجرية أو نارية ، بحيث كان لموقفه هذا اثره الواضح على حياته في اثينا وما جلبه عليه من صعوبات ! فأهمية رأيه انه كان الرائد لنظرية التساوي بين الكائنات السماوية والكائنات الارضية .. اما أفكاره الفلكية فلا تخلو من سذاجة وبساطة احيانا ، مما يبعدها عن الاصالة بشكل عام .

ولقد انتهى به هذا الرأي الى تبني تصور الايونيين للارض وانها قرص مسطح محمول بوساطة الهواء ، واما النجوم فقطع نارية صخرية انفصلت عن الارض بفعل سـرعة حـركتها الدائرية .. وهذه الارض نشأت مع تكّون العالم : كانت تحمل طينا جفف بوساطة حرارة الشمس ، وهذا الطين خصب بالنطف الحيّة التي يحويها الهواء ، وهو الذي يسبب خصوبة الارض وصلاحها للعيش .. وفي مرحلة من الزمن مال قوام الارض الى جهة الجنوب ، كي يكون بعضها مسكونا وبعضها الآخر يبابا .

واما القمر فجسم صلب مستدير فيه وديان وجبال وكائنات ! .. وما

يرى فيه من تضاريس سببه الامتزاج لانه متكون من جوهر بارد أرضي وجوهر ناري كما هي عليه حال الكواكب الاخرى • وهو يضيء باشعة منعكسة ، وانه ادنى فلكا من الشمس •

اما الشمس فهي صخور مشتعلة لانحس حرارتها لبعدها عنّا •وعن انعكاس شعاعها يحـدث (قوس قـزح) في السماء بسبب سحاب كثيف شريطة ان يكون محاذاة ما يلاقيه كوكب ثابت أبدا ! •

٤٣ ــ وفيما قدمه لنا انكساغوراس من معرفة فلسفية وعلمية ما يدفعنا الى الايمان بان الرجل لم تخذله فطنته من استكشاف المكنون فوضع انامله يتحسس السبيل ، فكان اول متبصر قادته فطرته الى التحدث عـن (العقل) فوضع المسألة وضعا جديدا لم يسبق له مثيل في اليونان • فكان فيلسوف التأمل حقا الذي قاد الفكر نحو هدفه العتيد[١٠٨] •

فَلاسِفَةُ الذرّةِ والآليّة

لوقيبوس ـ ويمقريطس

٤٤ ـ في محاولة تدبرنا للفكر اليوناني ، يتمثل جزء هذا الفكر بالعلم بمعناه الدقيق • حيث نهض على اظهار القضايا المتضادة التي اثيرت حول فلسفة الوحدة والكثرة وظواهرهما المتباينة ، وبما حاوله عصر ذاك من الاستفسار عن مدى حقيقة هذا التضاد •• وهل انه مجرد وهم وتصور ينبع عن حواسنا الناقصة ؟! ام انه أمر ثابت متعيّن ومحدّد ؟

ان الردود التي اعطيت لهذه المشكلات من قبل الفلاسفة اليونان كانت تحمل استقطابا واضحا بين أقصى اليمين الى أقصى اليسار ! • ففي الجانب الاولى وجدنا بارمنيدس ومن ناصر مذهب الوحدة • وفي الجانب الآخر وجـدنا امبادوقليس ومذهب الكثرة ، ثم يليه انكساغوراس الذي ابلغ الموقف الى نتائجه كما مرّ بنا سابقا •

اما الذرية ـ كقضية تحمـل دلالة الوحدة والكثرة ـ فقد حاولت ان تتعرف وتدرك مفاهيم الطرفين المتنازعين بعمق وبساطة • فاظهرت ان الكثرة في هذا العالم الصغير يمكن ان توضع بوساطة تنظيم خاص ينبـع من قانون السببية الذى يحكم الكون •• وبهذا التبرير العلمي ظهرت الذرية ـ كما سنرى ـ تحمل في طياتها فرضيات تعتمد على بنـاء منسق دقيق بحيث يبدو لنا وكأنه ذو صلة بالتفكير الذري الحديث • على الرغم من ان البناء الذري للمادة في زمننا المعاصر بناء ثابت الاسس وبعيد عـن الشكوك والاوهام بينا لم نكن نشعر بهذا قبل قرن من الزمان !

وفي ضوء النظريات الحديثة للذرة وتقدمها يمكن ان نقرن المواقف القديمة تاريخيا ومدى ما حققته من فرضيات وتخمينات لم يكن لها من وسائل العلم الا الاعتماد على الجانب النظري فحسب • فنجحت نجاحا تغبط عليه ، في وقت لم يكن للمنهج التجريبي بمعناه الحديث اثر لدى اولئك العلماء ، بل اعتمدوا في امكانياتهم على تقصيّ الطبيعة العامة تقصيا ذهنيا ليس غير !

ولسا الآن بصدد المباهلة أو المقارنة بين النظرية القديمة والحديثة للذرة ، فهذا أمر لا نقصده ولا يمكن ان تقوم له صفة موضوعية في التعادل، لاختلاف النتائج وتباين الانجازات في المرحلتين معا •• بل غايتنا ان نظهر نجاح النظرية القديمة في التنسيق المنطقي الذى قدمته في الاوليات العلمية، في وقت لم يكن للعلم القدرة على وضع هذه الفروض تجريبيا بسبب ما كان عليه من غلبة روح الكيف على الكم •

ومشكلة الذرية الرئيسة لم تكن سوى معضلة قابلية الجسم على الانقسام او عدم انقسامه • فتمثلت الفلسفة لديهم بهذين الخطين على العموم • وتاريخها القديم يمتد فيغطي اربعة قرون من الزمان ارتبطت باربعة حكماء كانت لهم شهرتهم الكبيرة ،وهم: لوقيبوس وديمقريطس وابيقورس والشاعر الروماني لوكريتس • وتختص دراستنا بالاولين منهما باعتبار سبقهما لعصر سقراط(١٠٩) •

ومهما قيل من اختلاف وجهات النظر بين هؤلاء العلماء الفلاسفة فالامر في واقعه لا يحتاج الى كثير اهتمام لان التباين لديهم لا في الاصول بل في الفروع • فالنظرية في اصالتها تنبع من معين واحد وتصدر عن مورد واحد • فالفرضيات متشابهة والحلول الاساسية متفقة • فهم مجمعون ــ بشكل متتابع ــ على ان في الطبيعة (تماثل) للقانون ، رسموه لنا تحت فكرة حفظ المادة وعدم فنائها • وهــذه النظرية العلمية التي صانت المادة من الفساد والاضمحلال سوف تساعد الى حد كبير في التدليل على وجــود الذرات •

ولعل السبب الرئيس لموقف الذرية (وعلى الخصوص حكيمهـــا لوقيبوس) من مشكلة الثبات في الكثرة كان ينبع من مغالطة زينون الايلي في القسمة الثنائية أو ما سمي عنـد حكماء الاسلام بقاعـدة التنصيف ، بحيث قاد هذا الرأي الذرية الى نتيجة فحواها ان القسمة الطبيعية ليست

شبيهة بالقسمة الرياضية •

ثم اكملت النظرية الذرية بأولية ثابتة اعتمدت قيام الخلاء وكأنه صورة لحقيقة مستقلة بنفسها في هذا الكون • والفرض ذاته ينهض على اعتماد صحة ما ادعاه مفكرو المذهب من ان المادة مركبة من ذرات غير خاضعة للتغير ، فكل تغير يحدث يجب ان يكون نتيجة للحركة في الذرات لا شيء في الذرات ذاتها • والضرورة اللازمة لهذه الحركة هو (الخلاء) بحيث ان الاجزاء الذرية تتمكن عند ذاك ان تنتقل من مكان الى اخر • ومن هذاالرأي الدقيق يستنتج انه لااحتمال اطلاقا من وجود الخلاء داخل الذرة نفسها ، وفي مثل هذا الحال فالذرة محل للتغيرات فحسب ، واما التأثر الطبيعي فيأتيها من خارج • وسيقود هذا الامر الى فرضية أخرى هي ان الذرة شيء صلب بذاته •

والذريون متفقون جميعهم على ان عددية الذرات وقابلية التجدد في الكون امران لانهائيان • وتتمثل اللانهائية بالنسبة للكون بالزمان او بمعنى آخر بأزلية الكون ذاته • تلك الفكرة التي هبطت من معطيات ديمقريطس مستوحاة من نظرته حول صيانة المادة وحفظها ، ثم مشتقا منها القانون الطبيعي الذى فحواه : لاوجود اطلاقا من عدم •

وليس هناك اي اختلاف في المادة التي تحتويها الذرات ، بل موادها مطردة ومتناسقة ومتساوية – كما سنوضح ذلك – وهذا التناسق في التفسير الحديث يعود الى عوامل كيمياوية في النظرية الذرية المعاصرة •

وبما ان النظرية القديمة نهضت على فرضيات ميكانيكية ، فلا غرابة اذا كان التباين أو التمايز بين الذرات ميكانيكيا أو هندسيا • فبعض الذرات خشنة الملمس ، وبعضها مدببة واخرى مجوفة وثالثة محدبة ، وبعضها يجمع اكثر من صفة واحدة في الشكل اللانهائي •(١١٠)

ومن خلال التراث الفكري للمدرسة اثيرت حولها مشكلة الحركة المستديمة في الذرات وما هو اصل هذه الحركة ، بحيث اندفع احد فلاسفة اليونان الكبار وهو المعلم الاول مدعيا ان نظريتهم تخلو من سببية الحركة ..[111] ولكن الذرية في الواقع لم تحاول الاستفسار عن سببية الحركة باعتبار انها نظرت اليها كحقيقة مسلّمة ، تماما كما فرضوا وجود الذرات سواء بسواء . فليس هنا اذن مجال الطعن أو اللّمز بهم . وعلى الرغم من عدم معرفتهم بقانون الحركة الكّمي فانهم اصابوا الهدف عندما خصصوا لكل ذرة حركة حتمية واصفين مقدارهذه الحركات بوساطة المصادمات الميكانيكية الاولية المرنة. وعن هذا السبيل نجحت الذرية في الحصول على اصول قانون النظرية الحركية للمادة بدون الحاجة في الرجوع الى الرياضيات ، بل اعتمدت على احصائيات ذهنية اولية فحسب . مع العلم انها اكدت ان صور الذرات ليست اجزاء من الاجسام المركبة ، بل هناك دوما جزء متروك له ان يتحرك بحرية ، وهي في مثل هذه الحال تأخذ أشكال الصور المهتزة بذبذباتها .

وسنحاول في نهاية عرضنا لافكارها تقديم موجز لانجازاتها العلمية والفكرية بعد ان نستوفي قمتين من قممها الشامخة .

* * * *

٤٥ ـ اما القمة الاولى فهو لوقيبوس . حكيم لانعرف عن حياته كثيرا ، وقد اثيرت عدة تخمينات ظنية حول المدينة التي ولد فيها ، فقيل ابديرا ، وايليا او ملطية . اما تاريخ ميلاده فغير معروف ايضا . ومن المحتمل انه عاصر امبادوقليس وانكساغوراس، فازدهر حوالي عام (٤٣٠) قبل الميلاد[112] .. والنصوص المنقولة عنه قليلة وتحتمل بعض الشكوك . واغلب معرفتنا التاريخية عنه وعن صاحبه متأتية من مأثورات ارسطوطاليس التعليمية وتلميذه ثيوفراسطس حيث اقتبسا أقاويل الذرية بغية الرد عليها واظهار مواطن الضعف فيها . ثم تضاف اليهما روايات فلوطرخس التي

لم تعد ذات تأثير في الدراسات المعاصرة ـ ومن ثمة اقوال الشراح والمؤرخين وأحاديث رواة الآراء للفلسفة اليونانية • وقد وصفته بعض هذه المصادر بانه ايلي ، ومن المحتمل ان هجرته الى ايليا ترتبط مع الثورة التي حدثت في ملطية عام (٤٥٠ ـ ٤٤٩) قبل الميلاد • ويذكر لنا ثيوفراسطس انه تلمذ على يد بارمنيدس ، وكان سمّاعا لزينون ، مما انتهى به ـ كما تدعي الرواية ـ بادىء الامر الى تبني بعض مواقف بارمنيدس ، ثم افترق عنه بما يضاده • (١١٣)

وهناك من حاول ـ قديما وحديثا ـ التنكر لشخصية لوقيبوس (١١٤) وعلى رأس هؤلاء ابيقورس في عبارته : « ان لوقيبوس لم يكن فيلسوفا » التي فسرت تفسيرا خاصا بينا يذهب الاستاذ برنت الى ان اضافة فكرة الانكار الى ابيقورس أمر غير مقبول لان عبارة الرجل لا تعني في حقيقتها الانكار ، بل التركيب اللغوي في اليونانية اظهرها واكأنها تحمل دلالة اخرى ••

ولكن الواقع ان عبارة ابيقورس تستعمل فعل الكينونة بطريق النفي مما يدفع الانسان الى الميل بان الرجل حاول التنكر لشخصية لوقيبوس • ومهما يكن فمرجع ذلك كما نعتقد يعود للمنحنيات السايكولوجية في شخصية ابيقورس بالذات • فمحاولته لم تقتصر على انكار شخصية لوقيبوس فحسب ، بل دفعته نرجسيته أحيانا الى التنكر لجميع أفكار القدماء حتى لاراء ديمقريطس نفسه •

لقد مثل لوقيبوس ـ والذرية معا ـ محاولة التوفيق او التسوية بين مذهبي هرقليطس من جهة والايلية من جهة اخرى خاصة ما يتعلق منها بمشكلة الوجود وتصيّره ، وذلك بحثا وراء طريق وسط بين الواحدية والتعدد • ففي نظريات لوقيبوس بعض ظلال من البارمنيدية مما يشكّل صلة فكرية يصعب التنكر لها ، سواء كانت هذه الصلة متأتية عن تأييد للمذهب او رفض له • وعلى الرغم من اننا نلمس في اقواله وشائج قربى

مع انكسيمندريس وانكسيمانس ، نجد في الوقت ذاته معالم لامباد وفليس وانكساغوراس ، بل نراه احيانا يتصادى مع الفيثاغورية واعدادها .

٤٦ ـ قدّم لوقيبوس الذرات وكأنها في حركة دائمة مستمرة ، صاعدة وهابطة نسبة الى ثقل الاجسام وخفتها لان (لاشيء يحدث بدون قصد ، بل كل شيء عن سبب وبالضرورة) ـ ومعنى الضرورة هنا يفيد الحتمية الطبيعية ويبعد فكرة الصدفة عن المذهب[١١٥] .

وكان يرى ان تعدد الاشياء يرجع الى ما فيها من اختلافات كميّة ، مؤكدا فيذات الوقت وجود «الخلاء والملاء» معا . وكان هدفه من هذا الرأي ان يبرر موقفه من طبيعة الاشياء ذاتها . ولم يكن الكلام على الخلاء من ابتكاراته بل سبق للفيثاغورية التحدث عنه وربطته بمحيط الهواء . ولكن الجديد عن لوقيبوس انه اكد ان (الوجود) و (اللاوجود) كلاهما يحملان دلالة الايجاب او الوجودية . فالخلاء اذن حقيقة كحقيقـــة الجسم . والذرات تعبير عن الملاء أو بمعنى آخر هي الوجود ، ولها ابعاد ثلاثة ، وتشبه الجسم الرياضي الذى تحدثت عنه الفيثاغورية[١١٦] وتتميز بحجمها وشكلها ، وان جميعها تتشابه من حيث المادة وان الكون هو هذا الخلاء اللانهائي المملوء بالذرات التي لاحصر لاعدادها . ولا تختلف الا في (الشكل) و (الوضع) و (الترتيب) . وان هـذا العالم حـدث عن الخلاء بطريق تجمع الذرات ، وحدثت عنها عوالم لانهاية لها . والعالم الذي ننتمي اليه هو واحد منها ، وله قوانينه الالية .

* * *

٤٧ ـ واما القمـة الثانية فهـو ديمقريطس ، حكيم فاق سابقيه ومعاصريه من الفلاسفة في اتساع معرفته وجدية تفكيره وسلامة منطقه.. ومعرفتنا بحياته اكثر مما عرفناه عن صاحبه .

ولد في مدينة ابديرا[١١٧] حوالي عام(٤٦٠) قبل الميلاد . ويروى

ان الحكيم نفسه قال انه كان يافعا عندما كان انكساغوراس شيخا • لذا يرى ابولودورس ان ازدهاره كان بعد أربعين سنة من انكساغوراس ، اي حوالي (٤٢٠ ق • م) • وهو معاصر لسقراط والسوفسطائية • ولكن ارتباطه فكريا بلوقيبوس جعل الميل عند الباحثين الى تقديمه على معاصريه •

قضى شطرا من حياته في دراسة الفلسفة وبناء قواعدها وانشاء جيل من تلاميذه • وكان غناه وثروته تساعدانه على تحقيق هذه الرغبة • ثم طوّف في أنحاء الدنيا ، فقيل انه سافر الى مصر ومكث فيها خمسة أعوام • ثم زار بابل وفارس للوقوف على معارف الكلدانيين ، وبعدها زار منطقة البحر الاحمر ، وفي بعض الروايات انه زار الهند واطلع على آراء فلاسفتها(١١٨) • ثم رحل الى بلاد الحبشة ، واستقر به المقام أخيرا في اثينا •• وفي اثينا تنكرت له المدينة بحيث دخلها – كما يقول هو – فلم يعرفه أحد •• ولعل هذا الموقف يعطينا صورة من صور تعصب الاثنيين نحو مجتمعهم المغلق • فحكيم كديمقريطس تتجاهله عروسة الغرب يومذاك لسبب بسيط هو انه لم يكن له رصيد بين السياسة أو أصحاب الجاه في المدينة • بينا احتضنت غيره من الاجانب كأنكساغوراس ••• وهناك من يدّعي ان موقف اثينا منه يعود لعدم معرفتها بتصانيفه التي نشرت في ابديرا • ولكننا لا نتفق مع هذا الرأي فمعرفة الافكار الفلسفية في اثينا لم تنهض على هذه القاعدة ، أعني وجوب معرفة النتاج العلمي عندما ينشر في اثينا فقط ، ولو كان الامر كذلك لما عاد افلاطون مثلا وكأنه وجه ثان لفيثاغورس ، ونحن نعلم ان الاخير عاش ومات خارج اثينا ••

أوليس من الغريب حقا ان يتنكر لديمقريطس حتى افلاطون في محاوراته فلم يشر – لا من قريب ولا من بعيد – الى اسمه قط • بل يبالغ أحد الرواة (وهو ديوجينس اللاريتي) فيقول ان افلاطون كان يكره

ديمقريطس ويتمنى لو تيسر له احراق كتبه • بينما نجد ارسطوطاليس يقدره كل التقدير ويعجب بفلسفته وآرائه وينتقدها • ويرى الاستاذ برنت ان سبب عطف المعلم الاول على ديمقريطس لانه كان من مدينة مجاورة لمدينته استا جيرا فقربته اليه رابطة الجوار اولا ثم رابطة العلم ثانيا(١١٩) • وليس في موقف ارسطو ضير ولكن الذي نأخذه هو تنكر افلاطون • مع العلم ان محاوراته لم تخلو من أسماء لفلاسفة ليسو من اصول اثينية • واما دعوى عدم اطلاع افلاطون على فلسفة ديمقريطس فأمر لا يمكن الركون اليه ، لاسباب منها رواية ديوجينس السابقة ، ثم شهرة الرجل في الاوساط الفلسفية ، بحيث اعتبرت بعض آرائه ردا على بروتاغوراس(١٢٠) • ولا ندري فلعل هناك جفوة خفية دفعت افلاطون الى هذا الموقف • أدت الى ان حكيم الاكاديمية الكبير يخشى على نفسه التعامل مع افكار ديمقريطس الغزيرة معنى وموضوعا ، تخـوفا من ان تضعه هذه الآراء أمام صعوبات جمة هو في غنى عنها وعن مواقف تلاميذه في الاكاديمية وانتقاداتهم • خاصة وان شهرة ديمقريطس لم تعد خافية عن الاعين كمّا وكيفا ، وكان من انتاجه الفكري ما دفع بعضهم الى مقارنته - في العصر الثاني - بانتاج ارسطوطاليس وافلاطون نفسهما •

٤٨ - استوعب ديمقريطس في انتاجه الفكري جوانب واسعة من المعرفة والعلم فألّف في الطبيعيات والفلك وعلم الحياة وعلم النفس والسلوك والرياضيات والهندسة ومقالات عن الفن والقانون وغيرها • وكان أسلوبه في التدوين يرقى أحيانا الى لغة افلاطون وارسطو • ومما يؤسف له حقا ان اكثر هذه المؤلفات فقد كسائر اعمال الفلاسفة السابقين على سقراط • وما وصل الينا اثيرت حوله الشكوك ، ومن هنا اعتمدنا على مأثورات ارسطو وثيوفراسطس واقوال الشراح في معرفتنا لافكار الرجل وفلسفته • كما سبقت الاشارة اليه •

لقد قسّمت مؤلفات الرجل الى روابيع Tetralogies على يد ثراسيليوس[١٢١] وكان مجموعها ثلاث عشرة رابوعة في خمس مجموعات تضمن ثنتان وخمسون رسـالة ، احتوت الموضوعات التالية : الاخـلاق رابوعتان ، الطبيعة أربعة روابيع ، الرياضيات ثلاث روابيع ، الموسيقى والفن واللغة رابوعتان ، ثم موضوعات عمليه رابوعتان • وأكثر ما بقي من هذه الروابيع هي المأثورات الاخلاقية واكثرها منسوبة اليه ، ولعل فيها بعض الاقوال لغيره من اليونانيين المتأخرين على عصره • [١٢٢]

ومما يلاحظ ان المذاهب الآلية الحديثة اهتمت كثيرا في دراســـة ديمقريطس وآرائه خاصة الفلاسفة الروس ••[١٢٣] واكثر البحوث التي ظهرت عن نظريته يعتورها الغموض بسبب ما اصطبغت به تلك الدراسات من تحولات عن الموضوعات الاصلية مما أدى الى تعارضات ومناقضات في النصوص ذاتها • واهم نص للنظرية ورد في اعمال يثوفراسطس ولـكن شروحه هي الاخرى تبقى في حاجة الى الايضاح والتبرير لانها وعــرة المسالك قليلة النضج •

* * * *

٤٩ ـ كان ديمقريطس يذهب ـ كأستاذه من قبل ـ الى عدم امكان حدوث الكون المطلق ولا العـدم المطلق • ولكنه في الحقيقة لم يحاول انكار تعدد او تنوع الكائنات • فالحركة والتصير الصاعد والهابط للاشياء جعلته يؤكد مرة أخرى فكرة لوقيبوس من ان اللاوجود حقيقته الوجودية كالوجود سواء بسواء • ومن هنا اعلن ان الخلاء والملاء كلاهما اساسيان للاشياء • وان الملاء ينقسم الى أجزاء لا نهائية في الصغر ، وتتفرق هـذه الجزيئات بعضها عن بعض بوجود الخلاء ، وهذا الجزء الصغير جدا غير قابل للانقسام ويشغل حيّزا خاصا به • لذا سميت هذه الاجزاء الصغيرة

بالذرات Atoms وهذه الذرات لهـا ذات التركيب الـذى يحمله الوجود البارمنيدي ولكنها توصف باللانهائية ومنظمة في خلاء لا نهائي أيضا • وهي متجانسة تجانسا تاما في جوهرها • وتباينها ظاهري ، ولا يلحقها تغير كيفي بغير الوضع • فكل تغيّر يمكن ان يحدث فهو راجع الى مقولة الوضع أو الى طبيعة التنظيم الذري نفسه •وان الاشياء ذاتها تصدر عنها مؤثرات بطريقة آلية بسبب المصادمات • فكل اثر متأت عن مسافة فهو مرتبط بهذه المؤثرات أيضـا • وان الصفات في الاشـياء تعتمد على (الشكل والحجم والوضع والترتيب) في الذرات ذاتهـا كما ذكرنا مـن قبل •• (١٢٤) ويبدو ان ديمقريطس جعل اهمية واحدة متساوية بين هذه الصفات وبين علّيةظاهرة الاحساس ، فمثلا من الناحية العلمية يعتبر (الشكل) في الصفات الثانوية كسبب أساس ، وقد ميّز هونفسه بين ثلاثة ألوان رئيسة : الابيض والاسود والاحمر • فالابيض يتكون من ذرات ناعمة يمكن خرقها من قبل الضياء والاسود يتكون من ذرات مسنّنة غير متساوية وغير متشابهة وثقوبه مظلمة ويصعب خرقها من قبل الضياء • اما الاحمر فيتكون من نفس ذرات الحار باعتبار اننا نحصل على هذا اللون عن طريق الحرارة ، والاجسام المشعة تكون حمراء اللون • اما الالوان البسيطة فهي مركبة من تلك الذرات جميعا •

فهناك اختلاف أساسي في الذرات يعبّر عنه بلغة العلم الحديث بالتمييز بين الكيفيات الثانوية أوكيفيات الحس وبين الكيفيات الاولية(١٢٥) مثل الثقل والكثافة والصلابة التي ترجع الى طبيعة الاشياء ذاتها • ولكن ديمقريطس لم يجعل الكيفيات الثانوية في الاجسام حقيقة الا بحسب العرف • وقد حاول ان يشرح في نظريته تلك الكيفيات بنوعيها بوساطة اللواحق واللوازم المتضمنة في عناصر الطبيعة الاولية ولكن الموقف في الواقع نظري بحت ، ولايمت بصلة قرابة للعلم الحديث • وعلى الرغم من هذا فان طريقة التفكير عند

الذريين القدماء من ناحية مناهجهم الاولية تشبه الى حد ما مواقف الذريين المحدثين • فكلاهما كان يهدف الى شرح صفات الموضوعات الحسية بوساطة التغيّرات الطبيعية في دائرة الذرة •

واما اذا رجعنا الى مقولة (التقل) فلا يمكن اعتبارها صفة او كيفية مستقلة ، بل عملية وظيفية لحجم الذرة • أو كما يقول ديمقريطس نفسه «انه كلما زادت في الذرة عدم قابلية الانقسام ، كلما كانت الذرة اثقل» — وعدم قابليتها للانقسام ليست من الناحية الرياضية بل من الناحية الطبيعية •

وان حركة هذه الذرات السريعة تؤدي الى ان الكبيرة منها تهبط بينا الصغيرة تتطاير الى الخارج كما تفعل حركة الغربال في الاشياء المختلفة حيث تفصلها حسب احجامها • وعن سبيل هذه الحركة تجتمع الذرات المتشابهة وتفترق فيظهر العالم بصوره المتعددة •• ولسنا ندري كيفية تحركها وكيفية تجمعها ، بل كل ما نعرفه هو ان تجمعها وافتراقها يقصد منه التعبير عن عمليات «الكون والفساد» — مع العلم انها غير قابلة للعدم اطلاقا • ومهما يكن فالعلم حين يفسر السببية مثلا يفرض لها بداية وقد يكون فرضه تعسفيا ، فلا ضير اذن على الذرية حين تركت الحركات الاولى بدون تعليل او تبرير •

اما الحركة التي فرضتها الذرية فترجع الى الجواهر الاولية كما فعل الاينيون من قبل ، وشكل هذه الحركة دائري ، فلا بدء لها اصلا •• وانكر ديمقريطس ان تكون الحركة مصدرها الثقل ، بل ان الذرات تتحرك في خلاء لا نهائي ، فليس الثقل اذن سبب الحركة • وموقفه هذا يذكرنا بالنظرية الحركية للغازات التي تخفي فيها حركة مستديمة تتشخص بوساطة مصادمات ثابتة لا تتغير ، باعتبار ان الغازات تتحرك دائما وهي في حركتها تلك لا يتغير وزنها المطلق ، وانما يتغير الضغط الذي يخضع لعوامل معينة كالحرارة والبرودة وغيرهما •

وعود على بدء لمشكلة الثقل والخفة التي كان يظن انهما أشياء في داخل الاجسام لا مجال الى الخروج على هذا الموقف الا في النادر • لذلك فأي اتجاه عند القدماء يؤدي الى التشكك بفكرة الثقل ، يعتبر بادرة جديدة في الموقف • على اننا لم نجد من حاول نعت الثقل بانه شيء قائم بحد ذاته كالحرارة والبرودة مثلا • بله لم نجد شرحا وافيا لهذه المشكلة عند اي فيلسوف من فلاسفة اليونان • حتى الحركة والمقاومة ـ وهما أمران يمكن اضافتهما الى الثقل ـ نظر اليهما بعيدا عن معنى الثقل(١٢٦) • ونحن نعلم ان الوزن النوعي لم يكن معروفا عند القدماء قبل استكشافه من قبل ارخميدس (٢٨٧ ـ ٢١٢م) قبل الميلاد • وقبل هذا التاريخ تخبط الفكر اليوناني بمشكلات الثقل ولم يجد لها حلا سليماً • وكان آخر هذه المفارقات موقف المعلم الاول ودعواه ان الثقل والضوء امران مطلقان •

مع العلم اننا لم نجد أية اشارة عند الذريين الاوائل بخصوص ثقل الذرة وخفتها خارج نطاق حركتها الدائرية • فيقال مثلا عن الذرة الكبيرة انها ثقيلة ، وعن الصغيرة انها خفيفة ، ولكن هذا الحكم لا يتحدد الا داخل نطاق حركة الدوامة التي تعيشها الذرات •• اما في الخارج فلا يمكن الحكم عليها •(١٢٧)

اما بالنسبة لديمقريطس على الخصوص ففكرته تعتمد على ان وزن الجسم ينهض على المزيجين : الملاء والخلاء في الجسم ذاته • فبعد الذرات بعضها عن بعض يمثل نوعا من الثقل المقصود في النظرية ـ كما اشرنا الى ذلك من قبل ـ فاذا أردنا ان نعكس موقف الحكيم بلغة العلم الحديث قلنا انه ادرك ـ وبشكل خفي ـ فكرة الثقل نظريا ، ومال الى انها تعتمد على النسيج الشبكي للجسم والوزن معا ••

* * * *

٥٠ ـ على الرغم من ان ديمقريطس تحدث عن بنية الانسان العضوية

في فلسفته ، فانه اعتمد بشكل كبير عند الشرح على الحياة النفسية للكائن الحي • فقدم نظرية للمعرفة فسر من خلالها الاحساس تفسيرا ميكانيكيا ، واعتبر النفس مركبة من ذرات كحزمة ضوء الشمس حينما تسقط على فتحة شباك فتحمل خلالها هباء ينحرك[١٢٨] وهي لا تتعدى كونها طبيعة تحتوي على ذرات دائرية نارية خفيفة تنتشر في كل انحاء البدن • فكل الاشياء الحية اذن يوجد فيها جزء نفسي او عقلي •

ويستتبع هذا الموقف عند الفيلسوف التحدث عن موضوعات الابصار والرؤيا • وقد استقاها من امباد وقليس ونظريته في انبثاق الاشياء • وهذه الانبثاقات من الصور تنبعث من الموضوعات وتدخل « انسان » العين • فعملية الابصار هي دخول هـذه الصور • وقد نرى الاشياء مشوشة وغـير متميزة لبعدها أولا أو قد لا نراها اطلاقا ، باعتبار ان هذه الانبعاثات تتأثر بالهواء المحيط • فلو فرضنا عدم وجوده لجاز رؤية النملة الصغيرة وهي في كبد السماء •

وقد ادعى ديمقريطس ان نوعامن الصور ينبعث من الاجسام مشابها لها وهذه الصور تطرق العين فتحصل الرؤيا المطلوبة •• ونظرية الصور هذه تحدد لنا كل المذهب الذري وموقفه ازاء الاحساسات • على ان يرتبط الادراك الحسي في حال التذوق والشم واللمس بالمدرك • ومن هنا فان شكل الذرات ــ وليس تركيبها ــ هو الامر القطعي في المذهب الالي للذريين •

اما الاحساسات الخاصة (أعني الحواس الخمس) ففي رأي الحكيم خادعة لا يركن اليها لانها لا تمتلك حقيقة مماثلة خارج نطاق الموضوع الحاس ••[١٢٩] يقول ديمقريطس مافحواه :اننا بطريق التعودوالاستعمال نصف هذا الشيء بانه حلو او مر ، وكذلك الامر بالنسبة الى اللون والى الحار والبارد ، كلها اشياء تعودناها ، وفي الواقع ان حواسنا لاتمثل شيئا

في الخارج ولكنها تتأثر بعوامل خارجية ممايؤدي الى ان الاحساس امر مادي • وقد يختلف من شخص لاخر لتباين اعضاء الحس (المقصود الحواس الخمس) لا لتباين طبيعتها هي بالذات • فنحن لانعرف شيئا حقيقيا عن طريق الحواس سوى التغيرات التي تحدث طبقا لمزاج الجسم والذرات التي تدخل فيه أو الاشياء التي تقاومه • لان الوجود الحق هو عالم الذر والخلاء الذى لايدرك بالحس • فالحقيقة اذن بعيدة المنال ولاتوجد الا في الاعماق •• (١٣٠)

فيرفض هنا ديمقريطس ان يكون الحس كمصدر للمعرفة الانسانية، تماما كما فعل فيثاغورس من قبل وسقراط الحكيم من بعد • وبموقفه هذا انقذ امكانية العلم بتأكيده بوجود نبع للمعرفة غير الحواس الخاصة • باعتبار ان الذرات الخارجية في قدرتها ان تؤثر على ذرات النفس بشكل مباشر دون تدخل عضو الحس لان ذرات النفس نافذة في كل جهات البدن

على ان المعرفتين (الخاصة والحقيقية) كلاهما من طبيعة واحدة ، فلا فاصل بين الاحساس والفكر ، بل الفكر ضرب من الحركة ، والمعرفة الاصيلة ليست فكرا بل هي نوع من الحس الباطن ، وموضوعاتها تشبه المدركات او الاحساسات المشتركة عند ارسطو طاليس • (١٣١)

٥١ ــ مما لمسناه في المصادر القديمة والحديثة الميل الى اعتبار ديمقريطس احد الرواد في علم الاخلاق والسلوك • وقد رأينا في تقسيم شذراته وموضوعاتها ما يؤكد هذا الموقف • ولعل اول مستفيد من هذه الاراء هو سقراط الحكيم وافلاطون الكبير •

وليس من اليسير الحكم على صحة المنسوب أو المنحول من هذه الاقوال باعتبار ما صاحبها من اضافات وتحريفات • وقد يسلم من هذا بعض مقالته (في الابتهاج) فقد أشار الى فقراتها سنيكا وفلوطرخس ، وبقى

قسم منها حتى العصر الحاضر •

وفحوى نظريته السلوكية هي ان اللذة والالم كلاهما يحددان معنى السعادة • وان السعادة لا يبحث عنها في الخيرات الخارجية ، بل يبحث عنها في النفس الباطنية • فمن اكثر خيرات الانسان حظا ان يعبر هـذه الحياة وهو يحمل من الابتهاج أكثر ما يمكنه حمله ومن الالم اقله •

وان لذ ّات الحس قليلة الصدق ، كقلة صدق الاحساسات في المعرفة الحقة • وان الخير والصدق شيء واحد بالنسبة الى جميع الناس ، لكن اللذة ليست كذلك لان الناس يختلفون فيها • يضاف الى هذا أن لذ ّات الحس قليلة الاستدامة فهي لا تملأ الحياة ، بل أغلب الاحيان تتحول الى آلام •

وفي قدرتنا نحن البشر التأكد من غلبة اللذة على الالم عندما ندفع جانباً البحث عن لذائذ في الاشياء غير الخالدة • وان الشيء الذي يجب ان نجاهد في سبيله طيلة حياتنا هو الابتهاج ، وهذه هي حال النفس المثالية • ولكي نضمن هذا الموقف يجب ان تكون لدينا القدرة على الحمل والتحكيم والتمييز بين قيم اللذات المختلفة •

ان اغلب بني الانسان يضع اللوم في سقوطه على الحظ ، ولكن لا يعلم بان هذا ظاهر فحسب ، بل عليه ان ينعذر بجهله لا بالحظ • ان المبدأ الكبير الذى يجب ان يقودنا هو التناسق والتماثل (١٣٢) ، فاذا نحن اضفناهما الى اللذات حصلنا على الراحتين : راحة الجسم وهي الصحة ، وراحة النفس وهي المرح والابتهاج • فاختيارنا لخيرات النفس هو اختيار لما هو ازلي وسماوي وخالد • واما خيرات البدن فهي خيرات انسانيـــة فحسب •

وعجيب أمر ديمقريطس وأخلاقه ، ففي صورها ظلال عميقة نجدها في جمهورية افلاطون وفي محاوراته الاخرى ولكن شاء الخلف ان يتنكر

للسلف ، فلم يشر الى اسمه حتى بالايماء او المجاز ! ..

★ ★ ★ ★

٥٢ ـ وأخيرا فان الانجازات الكبرى التي حققتها الذرية قديما تتحد حصرا في الاوليات التي اضافتها الى السببية العلمية من ناحية منهجها الاستدلالي . فقادها هـذا الموقف الى اشادة وبنـاء نظرية طبيعية للمادة تحمل شرحا عقليا لظواهر العلم الالي . ونحن نلمس ان الذرية في علاجها للمشكلات الطبيعية ـ سواء كانت بايولوجية او نفسية ـ بدت وبشكل دقيق انها ميكانيكية الاتجاه . فلقد ارجعت كل شيء الى حركات المادة والى المصادمات بين اجزائها ، ابتداء من فكرة ايجاد العالم (١٣٣)- وانتهاء الى فكرة النفس وادراكاتها . ولم يكن بالنسبة للذرية مجال اقحام اية قوة حركية أخرى كسببٍ للتصيّر الطبيعي لان قوة كهذه في رأيها غير واعية ولا معقولة .. ومن هنا نجد ان الذرية وانصارها ربطوا انفسهم بعلـة واحدة ليس غير لتفسير التغيّرات الطبيعية كافة . وهذا التوافق والتلازم الذي يضـعه الذريون للمبدأ الاحادي اذا اقترن بمشكلة نظرية المعرفـة سـيقود المذهب الى تضمين ذات الوضع الحديث الذي تبنـاه جون لوك والمدرسة الانكليزية التجريبية في القرن الثامن عشر : فالاساس الموضوعي للاحساس عبارة عن اتصال بسيط يتأتى على نوعين اما اتصال مباشر بين الشخص المحس والشيء المحس كما في اللمس والتذوق مثلا ، واما اتصال بين الشخص والذرات ينبعث من الموضوع ويدخل الى انفه او اذنه او عينيه . ونلحظ هنا ان الذرية ايضا تشبه لوك في تمييزها بين الكيفيات الثانوية في الاجسام كاللون والرائحة والصوت باعتبار انهـا أمور ذاتيـة لاحساساتنا يمكن توضيحها بوساطة اللواحق الآلية للذرات ، وبين الكيفيات الاولية كخاصية عدم النفوذ او الصلابة وغيرها التي تعبّر عن موضوعات اللواحق الصادقة للمادة .

يضاف الى هذا ان في نظرتها للذرة عمقا يفتقر اليه كل القدماء من معاصريها • فالصورة التي أعطتها المذرات وانها الوحدات الاولية للمادة ، واعتبارها التشخص الذري لحروف الالفباء كرموز بنائية لطبيعة الكون خالية من صفات الكيف وتتباين بالاشكال فقط - يقودنا هذا الرأي الى ما نسميه في لغة العصر بانه (ذري) • على الرغم من ان الذرية استهدفت قبل كل شيء ايضاح التفاصيل اكثر من بناء الافكار العلمية • وتقدمها كان في الخطوات التي احرزتها في بديهة التماثل والاستدلال العقلي بغية الوصول من الامر المنظور الى الامر اللامنظور مستعينة بالتناسق والتجانس والنماذج كصور توضيحية للموقف •

ومهما يكن فان العالم الذى تصوره الذريون مايزال ممكنا من الوجهة المنطقية ، وهو اقرب شبها بالعالم الواقعي من اي عالم آخر مما تصوره الفلاسفة القدماء كما يقول اللود رسل • (١٣٤)

فلاسفة الإنسان والنسبية

« السوفسطائية »

٥٣ ـ لم تكن السوفسطائية ـ في بدء ظهورها ـ حالة مرضية لحقت الفكر اليوناني كما يحلو لبعض الباحثين هذا الادعاء . بل كانت مرحلة تقتضيها روح العصر وسورة فكرية انصهرت في بوتقة من صراع التناقضات التي ورثتها عن مجد فلسفي قديم . يضاف الى هذا ما استجدّ من اوضاع كانت خليقة بارهاص منتظر ، مهما اعوز هذا الارهاص سلامة المنهج وصحة الدليل . وحسب الفكر يومذاك هذه اللمعة الخاطفة في حالك الظلام المخيم على نفوس الاثنيين ، وهم على أبواب عصر جديد يتطلع نحو الطريف والعتيد مستغلا كل الوسائل التي يرغب سواء كانت مبررة بالغاية أو مبررة بالوسيلة ، فالمقياس الذي يريد هو منفعة الانسان في ظل حكم الانسان على نفسه .

ولقد عانى النصف الثاني من القرن الخامس من هذا العصر نزعات شتى من انماط شتى ، في ظروف لم تستقم الا في القليل من تجربته العملية والفكرية . وواكب ذلك صراع طبقي ولدته طبيعة المجتمع وقلقه بعد حروب خارجية استنفدت معظم قواه ونشاطاته . فكان لابد له ان يتجه الى اختيار الطريق بنفسه بعد معاناته آلام النكسة تارة ، ونشوة النصر اخرى ، خاصة في معاركه مع الفرس من جهة ، وفي اكليل الغار في مارثون وسلاميس من جهة اخرى .. (١٣٥) ثم عودته الى الهزيمة والخيبة امام اسبرطة عام (٤٠٤ ق . م) ـ فادى ذلك الى قيام صراع حاد بين نظم الحكم السياسي داخل المجتمع ذاته ، تمثل بالنزاع الديمقراطي والارستقراطي على الحكم (١٣٦) . وعلى أثرها فقدت المدينة الخالدة اثينا مركزها السياسي في حوض البحر الابيض المتوسط ، بينا رجعت ـ في ذات

الوقت ـ تحمل في بطون اروقتها صورا من الاشعاع الفكري لـن تنساه البشرية حتى اليوم ••

ثم اختارت لنفسها طريق الديمقراطية حكما بعد ان دعت الى التضامن والاتحاد بين المدن المبعثرة ، بحيث بدت ديمقراطيتها من بعض الوجوه أكثر ديمقراطية من أي نظـام حديث على الرغم من نقصهـا الخطير في استعبادها العبيد والاماء •[137] فاشاعت في المجتمع الاثيني نوعا من الحرية الفكرية ، وسمة من الروح الفردية مما كانت تفتقده في حياتها السابقة • وشارك الانسان الشعبي ـ ولاول مرة ـ هذه الصفقة الجديدة ذاتها فادلى بدلوه بين الدلاء ، واصحر عن حقه في الجهر والخفاء ، واتخذ سبيـــل التظاهر والتخيّل في عرض ادلته ، ولم يلتمس طريق العلم ـ على ما بين السبيلين من تفاوت وتنافر في الوسائل والغايات ـ فتغلّب لديه الاقناع على التجربة ، والفرد على الجماعة والقياس على الاستدلال والحس على العقل• وعادت هذه النزعة الجديدة تعبّر بعمق عن طبيعة الانسان ذاته ، وكأنها انتصار له ضد افكاره الموضوعية وما لحق هذه الافكار من نقود في الهدم او البناء • بحيث رجعت حصيلة هذا الموقف في نهاية الشوط تصف الحركة الفنية التي ظهرت في اثينا بانها تبحث عن الانسان كأنسان وليس لها علاقة تخصص بالطبيعة الخارجية التي اوهن الفلاسفة السابقون قواهم في البحث عن مكنوناتها ثم رجعوا عنها بخفي حنين ، لم يعرفوا من أسرارها الخفية المعماة شيئاً ••

ومثّل هذا الاتجاه طرفان : فئة تسمى السوفسطائية ـ وهي موضوع البحث ـ وحكيم عبقري يسمى سقراط • وكان لكل منهما سبيله الخاص في فحص طرق المعرفة الانسانية ، بحيث عاد الاخير منهما (اعني سقراط) لاتدرك فلسفته الا على ضوء ما قدمه من مناقشات وحوار ونقود نحو الموقف الاول الذى بالغ في انتهاج الشك في كل معرفة سابقة ولاحقة ، مبعدا عنه

حكم العقل وسلطانه • بينا سلك الاخير (سقراط) طريقا في الشك قصد من ورائه البحث عن اسس الاخلاق والمعرفة ، فوضع حدا فارقا بين طبيعة السلوك الاخلاقي وبين مقولات الدين الذى تعارف عليه الناس • وبهذا كانت مواقفه تتطلع دائما الى البحث عن الحقيقة الباطنية للانسان •(١٣٨)

ولقد لعب الاتجاهان دورا كبيرا خلال تلك المرحلة ، فما كان منها ينهض على الاخلاق والسلوك ربط نفسه بالقانون المطلق ، وما كان منها يرتبط بالمعرفة سلك نفسه بالطبيعة الفردية وبحوثها • وكلاهما في نهاية الامر يولدان المشكلة التي عاصرها الفكر اليوناني فترة من الزمان •

ونعود الى الفئـة الاولى فنجد ان التسمية (اعني سوفسطائي) غير واضحة تاريخيا ــ في المضمون والشكل معا ــ بل تبدو مضلّلة في كثير من الاحيان • فمثلا نجد هيرودوتس يطلق هذا النعت على فيثاغورس مشيرا فيه الى دلالة الحذق أو المهارة بفن من الفنون •• ويطلقـه آخرون على مفكرين عارضوا مواقف السابقين بمـا كانوا يقدمونه للجيل الجديد من أفكار • ثم زاد الامر تعقيدا عندما حاول البعض اضافة هذه المجموعة (اعني السوفسطائيين) الى تيار عتيد وثابت ومتعين في الفلسفة ، بينما لم تكن لديهم مقومات البحث القائم على الحقيقة كما تعارف عليه مفكرو ذلك العصر • بل من الخطأ ــ كما نعتقد ــ ان تنظر اليهم كمدرسة في الفلسفة ، على الرغم ممـا نجده في حلقاتهم من مفكرين سموا ذكاء وفطنة واشتهروا بثقافاتهم الواسعة وبراعتهم الاجتماعية الفائقة(١٣٩) ••• لقد تنكر هؤلاء للمذاهب الفلسفية جميعها ـ ولم يحاولوا قط ان يجعلوا من تنكرهم أو شكهم مذهبا ثابتا يعترفون بصحة نتائجه • ومن هنا فقدوا عنصرا مهما من عناصر البناء الفلسفي الذي نقصد •

وفي القرن الرابع قبل الميلاد أخذ الاصطلاح مدلوله اللغوي المتداول ، ويبدو ان هذا كان بسبب ايسقراط (أحد السوفسطائيين) حينما حاول

انفصل بين ما يسمى « سوفسطائية » وبين ما يسمى « فلسفة » ـ فاشاد بالاول وامتدحه ، وغرر بالثاني وقبحه • وعند ذاك تلّبس الاصطلاح المذكور تعريفات عديدة تتباين هدفا وتفترق غاية • ففي عصر السوفسطائية الاول عرّفها بروتاغوراس بانها « حسن التدبير للفرد في حياته الخاصة والعامة يتعلم منها كيف يرتب داره خير ترتيب ، ويصبح قديرا على القول والعمل معا في مباشرة شئون منصبه لتجعل منه مواطنا صالحا للحياة السياسية والاجتماعية »[١٤٠] ثم ادعى نصيرها الاول (بلسان افلاطون وقلمه) ان السوفسطائية فنّ عريق ينزع الى عصور قديمة كان أصحابه يستترون تحت أسماء مختلفة بسبب بغض الناس للتسمية ، فظهر اتباعه ؤهم يحملون أسماء الشعراء مثل هومر وهزيود وسيمونيدس أو كرجال دين وأنبياء مثل اورفيوس وموزايوس ، أو أبطال مثل اكوس وهيروديكس وبيثوكليدس وغيرهم من المفكرين[١٤١] • ثم يضع افلاطون هو نفسه تحديدا للمعنى فيعرفه : « بانه صياد يدفع له الاغنياء أو الشباب المال أزاء بعه لحرثه الذي اصطاد »[١٤٢] • ويقول ارسطو عنه بان السوفسطائي منراء بالحكمة بانتحاله اياها ويبحث عن المال من خلالها[١٤٣] • وقد احتذى هذا الموقف بعض فلاسفة الاسلام فمثلا يعرّفها الفارابي بانها الحكمة المموهة القائمة على المغالطة ، ويحدّها ابن سينا فيصف حاملها بانه هو الذي يأتي القياس لا من الامور المناسبة ولا المتسلمة من ذات الامر[١٤٤] •

ولعل هذا الاختلاف البيّن في التعريف يرجع الى أعمال افلاطون وارسطو ، حيث شطرا السوفسطائية الى شطرين قديم ولاحق ثم عُطف الاول على الثاني ، فاختلطت الافكار فلم يتميّز حابلها من نابلها • وموقفهما هذا لا يخلو من جناية على الفكر ارتكبت في حق المنهج على أقل تقدير • فأدى ذلك الى صبغ المصطلح المذكور صبغة مرذولة لم يعد أحد يستسيغ سماعها ، فبغضته في أعين الناس واضعفت أصوله الاولية •

ويرجع الاستاذ جومبرز تحوّل المجتمع عن السوفسطائية الى أسباب أربعة نوردها فيما يلي(١٤٥) :

أولا : ان كل محاولة لاستجلاء غوامض الطبيعة وكشف أسرارها كانت تقابل بعدم الثقة من أهل التقوى والورع الذين كانوا يتمسكون تمسكا قويا بالدين والتفسيرات التي جاءت في الاساطير ونسبت الى الالهة اليونانية • ولذلك كان الفلاسفة بعيدين عن روح الشعب • فلما ذاع عن انكساغوراس تفسيره الاجرام السماوية بانها حجارة حوكم من اجل ذلك حتى اذا تناول السوفسطائيون بالبحث الامور الانسانية مثل أصل اللغة والاخلاق وقوانين الدولة أصبحوا أكثر تعرضا لكره الشعب وبغض المحافظين •

ثانيا : ان اليوناني كان يحترم النزعة الارستقراطية وينزل أصحاب الحرف الذين يتناولون الاجر منزلة ادنى • ومن المعروف ان أهل اثينا كانوا ينقسمون ثلاث طبقات على التوالي : طبقة المواطنين ، وطبقة الاجانب ، وطبقة الارقاء • وكان السوفسطائيون أجانب عن اثينا فضلا عن تناولهم الاجر •

ثالثا : ان القادرين على دفع الاجر هم القلة القليلة من الاغنياء ، وأصبح جمهور الشعب محروما من ذلك التعليم ، ففقد بذلك سلاحا قويا يحتاج اليه في التعبير عن أفكاره والدفاع عن آرائه(١٤٦) •

رابعا : معارضة شخصية من أقوى الشخصيات في تاريخ الفكر وهو سقراط ثم تبعه تلميذه افلاطون فكان في ذلك القضاء على السوفسطائية •

ومهما يكن فلعل في أدلة الاستاذ جومبرز ماينّجر على الدور الثاني من أدوار السوفسطائية ، اما الدور الاول فليس فيه ما يدعو الناس الى هذا النفور بل نلحظ التقدير لافكارهم وتعاليمهم طلبا للمهارة والبراعة والقدرة

وسرعة الخاطر • فكأن السوفسطائية فئة حاولت ان تصيغ الواقع الجديد لليونانيين بصورة واقعية وعلمية كي تشبع نهمهم نحو المعرفة ، وبهذا المدلول فهي تطوير تقدمي عاصره المجتمع الاثيني ، على الرغم من انها استخدمت كأداة في الصراع السياسي القائم يومذاك[١٤٧] •• فرجالها الاوائل كانت لهم منزلتهم المحببة في الاوساط العلمية والادبية نظرا لما امتازوا به من موسوعية شملت كل نواحي الحياة وحاجاتها • فحققوا بذلك متطلبات الافراد والجماعات بسبل مختلفة من التعليم يصدرون عنها وهم مزودون بسلاح عملي يشهرونه في كسب مغنم أو دفع مغرم • فخبروا بموقفهم هذا طبيعة الافراد ، فكانوا حقا ـ كما يقول الاستاذ زيلر ـ بناة الانثروبولوجيا في العصر القديم[١٤٨] • والنظرة الموضوعية والفردية التي تميّزهم عن سواهم يمكن ان نضيفها بمعنى من المعاني الى فلسفة العلوم أو معنى الاخلاق على انهم يختلفون موردا ومصدرا بالنسبة لهذه النظرة ، خاصة في الدراسات اللغوية والرياضية والفلكية والسياسية والقانون والخطابة وأساليبها • فكانت هناك اتجاهات متطرفة وأخرى معتدلة كلها تصدر عن أحكام أصحابها ولكنها لا تخلو من استقراء تجريبي واضح ، يعتمد البحث عن المعرفة لا كغاية لذاتها بل بمقدار ما تعطي من وسائل السيطرة على الحياة نفسها • ومن هنا هدفت السوفسطائية الى التعليم كي تكسب أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب الى ساحتها • وقد حاولت السيطرة على عقول الشباب واليافعين بمحاضرات عامة وخاصة ، نالت مجالا واسعا من قلوب الناس في اثينا[١٤٩] ، بحيث اثرت هذه الوسائل حتى على أدب المأساة والملهاة وعلى البلاغة والتعبير فاثارت مشكلة لم يسبق للفكر ان طرحها للبحث والاستقصاء ونعني بها اختيار المصطلح في اللغة • لذا نجد سقراط الحكيم شرع في الرد عليهم حينما حاول تثبيت المعاني ورسومها الحقيقية في الفكر أولا وفي الظاهر ثانيا وكان فضل ايجاد هذه الحركة يعود الى هذه الفئة من المفكرين •

ومما يلحظه الاستاذ برنت ان الباحثين الالمان يحاولون تقديم نحـو من المماثلة بين عصر السوفسطائية هذا وبين عصر التنوير في القرن الثامن عشر باعتبار ان السوفسطائية ـ حسب رأيهم ـ كانت تمثل أحد خطين : مجموعـة حملت لواء الجديد فهـدمت بذلك كل قديم سـواء في الدين والاخلاق ••• ومجموعة هدفت نحو التطوير فكانت رائدة الفكر الحر •

ولكن برنت لا يتفق مع هذا الرأي باعتبار ان السوفسطائية ان كانت لها نيّة نحو الهدم أو السلب فهي نية تتمثل بموقفها من العلم ، فكأن عصرها كان عصر ردة الفعل أزاء العلم • وهذا ولا شك لا يستقيم عند المقارنة مع أهداف عصر التنوير في اوربا(١٥٠) •

وليس بغريب حين نصف المجتمع اليوناني في عصـر سقراط بانه سوفسطائي بالمعنى الافلاطـوني ، لغلبة النفعيـة على روح البحث العلمي السليم ، ولتفشي الفردية وظهور أحكامها التي لا تميز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وان وجد فرق فهو غير ثابت وانما عرفي فحسب • فما هو صواب هنا قد لا يكون كذلك هناك •• بله لا يوجد خطأ وصواب اطلاقاً(١٥١) •

وأخذ بعض السوفسطائيين ـ خاصة المتأخرين منهم ـ تعليم الشبيبة هذه الافكار المبتسرة وبيعها بالجملة والمفرد اليهم(١٥٢) ، مدّعين انهـا وسيلة النجاح في الدولة الديمقراطية ، وسبيل التغلب على روح الآخرين في سوح القضاء والمحاكم وفي دنيا السياسة وادارة الدولة وحتى في تنظيم وضبط الاسرة •

فالجواء التي عاشتها السوفسطائية كانت عاملا مهما في ظهور هـذه التخرصات الفكرية على يد المتأخرين من أنصارها بحيث شطّ بهم الغرور فلمسوا طريقهم نحو فكرة (القوة) واعتبروها السلطان الذي لا يقهـر والسيف الذي لا يكسر ، وأطاحوا بنسبيتهم التي ابتكروها ، واستقطبت

أفكارهم استقطابا اخرجهم عن مسيرتهم الاولى وغاياتهم الخيرة • وتنادى لاحدهم ان يقول : « لا يلعن الظلم الا من لا يقوى على ارتكابه » ـ فكأن القوة هنا غرض يطلب لذاته لا وسيلة الى خير أعظم ! •

وسنستعرض خلال دراساتنا هذه بعض مفكريهم وتابعيهم ممن كان لهم أثرهم الواضح على الفلسفة اليونانية • وسنبدأ برأسهم الكبير بروتاغوراس •

* * *

٥٤ ـ يعتبر بروتاغوراس من ألمع رجال عصره وأذكاهم ، ابديرى المولد والنشأة • هاجر مرتين الى اثينا ، ادرك الاخيرة منها افلاطون ، ويصفها لنا في محاورته التي سميت باسمه • وفي سن الثلاثين طوّف في أرجاء اليونان وصقلية وكان أول من دعى « سوفسطائيا » •

وفي الحديث عن محاكمة سقراط في محاورة (تياتيتوس) نجد ان الحوار فيه ما يشعر ان بروتاغوراس قد توفي منذ زمن ليس بالقصير ، لذا من المحتمل ان مولده كان قبل (٥٠٠ ق•م) ، وان زيارته الثانية لأثينا كانت قبل عام (٤٣٢ ق•م) أي قبل تأسيس اكاديمية افلاطون بما يقرب من (٤٥) عاما • وكانت وفاته عام (٤١١ ق•م) على أقرب الوجوه[١٥٣] •

وفي اثينا قيل انه انضم الى حلقة السياسي المعروف بركليس ، وطلب اليه الاخير ان يصيغ دستورا لمقاطعة ثوريای وذلك عام (٤٤٤ ق•م) • ولهذا الطلب دلالته ، فلولا براعة بروتاغوراس وقدرته العقلية والسياسية والقانونية لما وثق رجل كبركليس في معرفته وكفاية علمه لتحقيق هذا العمل الضخم •

تنسب لبروتاغوراس بحوث عدّة يشك في صحة عناوينها • فيذكر له افلاطون مقالة موضوعها (الحقيقة) مقتبسة من أحد انجازاته ، وله

كتاب (في الوجود) وكتاب عن (الآلهة) • ونجد في الجانب اللغوي دراسات عن (الفعل) ومقالات نقدية عن النحو والصرف • وتعتبر أبحاثه في هذا المجال ـ وخاصة في النحو ـ ركيزة انطلاق في النقد الادبي عند اليونان ، اثرت وبشكل عميق على المسرح ومقوماته •

وتدعي بعض الروايات ان مؤلفاته احرقت من قبل السلطة في اثينا لاتهامه بالهرطقة والمرموق عن الدين •• فلو فرضنا اعتباطا صحة هذا الموقف ، فهل يمكن الادعاء بانهم احرقوا جميع كتبه حتى تلك التي كانت منتشرة في العالم اليوناني الكبير في ابديرا وصقلية وغيرهما من المقاطعات التي لم تكن تحت سيطرة اثينا[١٥٤] ؟ • وهذا ما يشعرنا بعمق بأن شذراته كانت معروفة ومتداولة ، اطلع عليها افلاطون واقتبس منها وناقش بعضها ، خاصة قولته المشهورة : « ان الانسان مقياس الاشياء جميعها الموجود منها وغير الموجود » • فأبدل بموقفه هذا مشكلة المعرفة من حال الموضوع الى حال الذات ، فشيّد نظرية جديدة ينقصها انه اتخذ من حكمه هذا وسيلة فحسب لا غاية ثابتة ، ففقد بذلك حلقة الربط التي تضمه الى المذاهب القائمة عصر ذاك •

ويتساءل الاستاذ برنت[١٥٥] عن الاسباب التي دفعت بروتاغوراس الى استعمال لفظة (مقياس) في عبارته السابقة • فيرجح في تبريره لهذا الاختيار ان الرجل بادىء الامر هاجم العلم الرياضي بمناقشات طويلة مدعيا ان علماء الهندسة يذهبون الى ان ساق المربع وقطره ليس لهما (قياس) مشترك ، بل الانسان هو المقياس لذلك • فكأن هذه المقايسة التي اضيفت للانسان في الجانب الرياضي اقتبسها بروتاغوراس حين صاغ عبارته المذكورة في اعلاه ثم اطلقها عامة على الانسان كمقياس للاشياء يحكم عليها بأفضلها لا باصدقها[١٥٦] •

واذا صح موقفه هذا من العلم الرياضي ، فمن المحتمل جدا افتراض

اجتماعه برجل الرياضة في عصره زينون الايلي ، فهناك بقايا من حوار قائم بينه وبين الايلي بخصوص فكرة الاستمرار الرياضية يذكره لنا ارسطوطاليس في كتاب ما بعد الطبيعة(١٥٧) •

ومهما يكن فان بروتاغوراس حمل كلمة (الاشياء) على المعاني الحسية كالحار والبارد والحلو والمر من جهة ، وعلى الصفات الكيفية كالقبح والجمال والخير والشر والخطأ والصواب من جهة أخرى• وصدر بموقفه هذا بوجهة نظر نفعية في الحالتين ، تنتهي الى ان الحاكم الاصيل هو المدرك الحسي مع تفاوت في نسبية هذا الادراك •

وعود على بدء نتساءل من هو (الانسان) المقصود به ان يكون مقياسا للاشياء جميعا ؟ ان التفسير الافلاطوني للعبارة يذهب الى تحديد المعنى بالانسان الفرد دون سواه « فالاشياء بالنسبة لي هي كما تبدو لي ، وبالنسبة لك كما تبدو لك » • فالاحساس الفردي هو الحكومة القائمة في نهاية الشوط باعتبار ان النسبية التي تبناها بروتوغوراس لا يمكن ــ كما يعتقد افلاطون ــ تعميمها بشكل جماعي ونوعي • ولو تحقق ذلك لفقدت صيغتها الطبيعية في الفروق الحسية بين انسان وانسان ولاستوى لديها حكم العام على الاشياء •

فافلاطون اذن يرجع لفظة (انسان) الى معنى (الفرد) المتعيّن •• ولكن هناك مواقف أخرى لبعض الدراسات اختارت الوجه الآخر من الاستقطاب فادعت ان المقصود من الانسان هو النوع دون سواه(١٥٦) وتنكرت لكل تفسير يخالفها ، معتقدة ان بروتاغوراس امكنه التمييز بين فصل النوع وجنسه !

ونحن نميل في الواقع الى ايضاح الموقف على سبيل آخر نستبعد فيه افلاطون من جهة ونستبيح التحديد ــ بمعنى خاص ــ من جهة أخرى دون الوقوع في التناقض •

فعبارة الرجل لا تحمل دلالة الفرد المتعين كما تصور افلاطون ، ولا دلالة النوع المطلق كمـا تصور الآخرون ، لان (المقيـاس) الذي أراده بروتاغوراس نفسره بانه (قوة) تُحمل على افراد الناس مجتمعين ومتفرقين وتصريف هذه القوة يختلف من فرد الى آخر ، بله لا يمكن القول انه في حال التطبيق تتفق قوتان من هذه القوى في المقايسة (تماما كما يظهر لنا من امتلاك الناس جميعا ادراكا حسيا ، واختلافهم جميعا في مستويات هذا الادراك) لان هذا الاتفاق لو امكن حدوثه وحصوله لاستحال (القياس) نفسه الى عملية استنباط عقلي لا يقره الحكيم .

فموقفنا اذن يدفع فكرة الفردية الخالصة عن (الانسان) المقصود ، ويستبعد فكرة الشمول للنوع المطلق الذي لا يدرك الا بالعقل كما يقول أنصاره .

يضاف الى ما تقدم بان هناك دلالة وجودية في عبارة بروتاغوراس : فالانسان مقياس (ما هو موجود وغير موجود) ـ وهذا وحده اشارة كافية تخرج الرجل عن طبيعة المقياس الفردي المتعيّن ، ولكنها تبقيه في دائرة الحس وادراكاته .

واستبيح القارىء عذرا عندما اثير هنا مشكلة الدلالات النوعية ، تثبيتا للرأي الذي رأيناه :

هل ان هناك فارقا قطعيا بين لفظة (انسان) الدالة على النوع ، وذات اللفظة الدالة على اسم معيّن ؟ يبدو ان الامر لا يحتمل المبالغة التي أرادها له القدماء ، بل ان الكلمات الكلية مثل (انسان) جديرة منا بالمناقشة لنرى ان كان هنالك ما يصح ان يسمى بالكلمات الكلية اطلاقا . فبادىء الامر لا مندوحة لنا عن القول بان الاستعمال الصحيح للكلمات الكلية ليس في ذاته دليلا على ان الانسان في مقدوره ان يجعل المعنى الكلي موضوعـا لتفكيره . فقد كان المفروض دائما اننا ما دمنا نستطيع ان نستعمل لفظا كليا

مثل (انسان) استعمالا صحيحا في لغة التفاهم ، اذن لابد ان تكـون في اذهاننا فكرة مجردة عن الانسان لتقابل هذه الكلمة الكلية وتصبح معنى لها ، لكن ذلك رأي خاطىء • وحقيقة الامر هي اننا نستجيب بصورة معينة لفرد معين من الناس ثم نستجيب بصورة أخرى لفرد آخر من الناس • لكن بين أفراد الناس جميعا عنصرا مشتركا يجعل في استجاباتنا لمختلف الافراد عنصرا مشتركا كذلك • فان اثارت الكلمة (انسان) الاستجابة المشتركة وحدهـا كان ذلك بمثابة فهمنـا لكلمة انسان الكليـة • اذن فالاستعمال الصحيح للكلمات الكلية لا يقتضي ان يكون لدينا تصور مجرد يقابلها(١٥٩) •

وحصيلة ما تقدم ان المقصود من عبارة بروتاغوراس امكانية ايجاد تقريرين في الموضوع الواحد كلاهما يوصف بالصحة قياسا الى الحكـم الحسي للانسان ـ والصحة هنا تحمل دلالة (الاضعف) و (الاقوى) أو ان شيئا أفضل من شيء • فكأن الحكم في المعرفة امر تدريجي يختلف باختلاف طبيعة الافراد النفسية والفسلجية • فمثلا انحراف صحة البصر يغير نتائج الحكم البصري على الاشياء ، فيدرك صاحبه شيئا من الحـال يختلف عن حال سليم البصر • وليس للاخير ان يدعي انه يدرك حقيقة اللون ولكن موقفه تغلب عليه فكرة (الافضل) ، بمعنى ان السليم يدرك أفضل مما يدرك المريض •

وتجدر الاشارة هنا ان بروتاغوراس لم يقصد بمنطوق (الافضل) و (الاقوى) فكرة (الصدق) التقليدية التي نطلقها على العبارات الكاذبة والصادقة كما حاول البعض انتزاعها منه كي يثبتوا تناقضه • بل المقصود بهذه الدلالات ـ اذا جاز فرضاً تحميل نظريته فكرة الصدق ـ معنى تقييمي ، أي من الخير ان نعتقد في صواب هذا الشيء ، والخير هنا ليس معيارا كما توهم بعض الباحثين ـ بل هو المنفعة التي هي مقياس الصدق في هذا الحكم

في حال تطابقه وانساقه ، سواء كان هذا التطابق مع الواقع أو كان مع الاساق في العبارات المقبولة فالموقف واحد لا يتغير •

ولا شك ان في محاولات بروتاغوراس اللغوية ودراساته في النحو والاشتقاق وأضرب الكلام وأصوله ما يدعو الى تنبيت ما قلناه ، لان المشكلة ليست حسية فحسب بل ترتبط بعناصر اللغة ونحوها ، وقد عدّ الرجل رائدا لقواعد اللغه اليونانية في فجرها القديم •

ونستنتج مما تقدم انه لا توجد ثوابت اجتماعية أو خلقية أو دينية أو سلوكية بين الناس ، بل تعود جملتها الى (العرف) فهو الامر الثابت الذي يتحكم في الافراد والمجتمعات على السواء • تماما كما تتحكم فكرة التغير ا ثابتة في التغير ذاته في فلسفة هرقليطس • بل ان موقف بروتاغوراس يمثل النتيجة الحتمية لمذهب الاول(١٦٠) •

٥٥ ـ وأخيرا اتهم الرجل بالهرطقة لتنكره أزاء الوثنيات وجمودها ، ونسبت له عبارة وردت في كتابه عن (الآلهة) فحواها : « انني لا أستطيع ان اعلم ان كان الآلهة موجودين أو غير موجودين ، وعلى أية صورة هم ، فان أمورا كثيرة تعوق هذا العلم ، فمن غموض الموضوع الى قصر الحياة الانسانية » •

ولو تأملنا عبارته السابقة لما وجدنا فيها ما يدل على الالحاد ، لان الانكار هنا لا يرتفع الى الايمان بحقيقة ثابتة ثم محاولة الخروج عليها فهذا امر لايساير أسلوب بروتاغوراس في المعرفة ، بل يبدو انه قصد ـ على افتراض صحة نسبة العبارة اليه ـ ايضاح فكرة ان ادراك الآلهة والاحاطة بها أمر لا يتيسر للبشر لانهم قاصرون عن معرفة كهذه ••

ويؤكد ما نقول سقراط الافلاطوني الذي وضع عبارة على لسان الرجل في محاورة اسمها (بروتاغوراس) تقول : « من الصفات الشريرة

الالحاد والظلم ، فهمـا امران يوصفان على وجه العموم بانهمـا مضادان للفضيلة والسياسة » •

فتهمة الهرطقة اذن مردودة جملة وتفصيلا ، بل هي من اختلاق المتأخرين من المشائين ، كما اختلقوا قصة حرق كتبه في اثينا ، بينا وجدنا الدليل المخالف لهذا الادعاء •

* * * *

٥٦ ـ بظهور غورغياس تستقطب السوفسطائية نحو الشك فتبلغ على يديه حدّا من الانكار لا يستقر على حال • وتستأثر لنفسها بجيل آخر غير جيل بروتاغوراس ـ حمل غورغياس عبء اوزاره مئة عام عدّا ، ابتداء من الحرب الفارسية حتى صبا افلاطون •

قيل انه تتلمذ على يد امبادوقليس ، واشتغل بعض الوقت في العلم الطبيعي والبصريات • ومما يلحظه افلاطون عليه انه لم يكن بارعا في تعليم السياسة كصاحبه السابق ، بل كان في الجانب الادبي أكثر منه ابتكارا • فهو موجد (البلاغة الاقناعية) في اليونان ، تلك الطريقة الخطابية التي استعملتها محاكم القضاء في اثينا •

كان كثير الرغبة في استعمال الالفاظ الآبدة الغريبة ، ينتقيها انتقاء ، ويميل الى ايراد الاستعارات النادرة ، ويستعمل الاضداد في المفردات زيادة في جزالة التركيب •

يتحدث عن نفسه فيقول : « ان مهنتي هي تعليم الفصاحة بحيث اجعل ممن اعلّم رجالا فصحاء بلغاء يفهمون ما يدور حولهم من نقاش وجدل ، وينتقدون اوضاعهم سواء في المحـاكم أو المحـافل السياسية ، ويستطيعون اقناع الآخرين[١٦١] » • وامتاز عصر غورغياس بالفصاحة والبلاغة والخطابة[١٦٢] بفضل ما اورده من أمور جديدة في اللغة والادب

ومحاولته استغلال هذه الحال لصالحه الخاص •

واعتبره بعض الباحثين مكتشفا لنظرية الجمال والشعر عند الاغريق• اضافة الى كونه صاحب نظرية خاصة في التاريخ تتبنى فكرة ان التقدم الحضاري مدين الى حد كبير للاستنباطات الفردية ، وقد تبناها من بعده تلميذه بولس وكذلك كريتياس(١٦٣) •

ويبدو ان مغالطات زينون وجدليته قادته الى روح الشك هذه بحيث ادعى انه لا شيء يوجد ، وان وجد شيء فلا يمكن معرفته ، واذا امكن التعرف عليه فلا يمكن نقل هذه المعرفة الى الآخرين •

اما آراؤه الفكرية فقد نهضت على التنكر للصلة القائمة بين اللغة والفكر ، تلك العلاقة الثابتة التي دافع عنها بارمنيدس وتبناها من بعده افلاطون •• ولم يبق من شذرات أفكاره ما يعتمد عليه كنص سليم • ولكن يمكن استخلاص موقفه من محاورة (غورغياس) لافلاطون حيث ينتهي الحوار بالرجل الى عدم التمييز الطبيعي بين الخطأ والصواب ، بل يقوده الموقف الى استقطاب يجعل من الحق معنى خاص هو حق الاقوى • فتعود الاخلاقية المعيارية والقانون العام من خلق الانسان الضعيف كي يكبح جماح القوى • وفي حال التطبيق نجد ـ كما يقول غورغياس ـ ان القوي هو السائد والمسيطر على الضعيف لان مظهر الحياة هو تغلّب الاقوى ، وهذا التغلب هو طريق الانسان في كشفه عن سعادته •

ومهما يكن فلا تخلو العصور الحديثة من مواقف تتصادى مع هذه النظرية الحادة خاصة في فكرة (البطل) أو عبادة الانسان المتفوق الكامل(١٦٤) •

* * * *

٥٧ ـ ونستأثر بالذكر هنا ـ بعد بروتاغوراس وصاحبه ـ مجموعة

من السوفسطائيين ظهر قسم منهم قبل غورغياس ولكن آثرنا تأخيرهم لعدم اهميتهم الكبيرة • واولهم هيبياس الايلي وهو رجل امتلك ثقافة واسعة في الرياضة والفلك والادب والتاريخ والنحـو والخطابة • وامتاز بدراسته الموسعة عن هومر وشرح اشعاره من الناحيتين الاخلاقية والنفسية • وله المام مستوعب بتاريخ الحضارة أثّر على معالم العصر الهينلستي •

وثانيهم بردويكس من جزيرة كيوس • عرف عنه ولعه بالبحث عن الاديان وأصولهـا والمعتقدات ومنابعهـا • واشتهر بمنهج التوليد الذي استعاره سقراط في منهجه •• وساهم في كشف قضايا اللغة واسرارها ، وخاصة موضوع المترادفات منها •

وثالثهم رجل يسمى ثراسيماخوس من تلاميذ امبادوقليس • ابتكر أسلوبا خاصا في النثر الموزون ، وجاء ذكره في جمهورية افلاطون عنـد حديثه عن العدالة وقول الرجل انها مصلحة الاقوى(١٦٥) •

* * *

٥٨ ـ وفي تقييمنا للسوفسطائية نلحظ سمات تأثيراتها واضحة فيما انتزعته من جوانب المعارضة والتأييد ، وما واكب ذلك من تقدم ملموس في الآداب الانسانية بشكل عام ، وما رسمته من تجديد في اللغة والبلاغة والنقد والفصاحة والخطابة والشعر بحيث لا تكتمل دراسة عن أدب اليونان بدون الاشارة الى السوفسطائية واتجاهاتها •

ومهما كان هذا التأثير الادبي الواسع فقد تجاهله افلاطون وتنكر له ارسطوطاليس ، بل تناولاه بالنقد والتجريح وحاولا طمس جميع معالمه الفنيـة •

ونحن ولا شك نعترف اعترافا موضوعيا بان السوفسطائية دعـاوة عبّرت النظرة الفلسفية القديمة التي كانت تتجه الى الخارج ، فجعلتهـا

نظرة داخلية باطنية وربطتها بالانسان فجعلته مقياس الأشياء جميعا ، ودفعته الى النسبية في نظرته نحو الاشياء • والنسبية حكومة سليمة في العقل والعلم معا • وأدت هذه النظرة الارضية الى قيام بناء عتيد في المعرفة اتخذ من الشك طريقا في التفلسف ، ومن التربية طريقا في التثقف • وفي كلا الحالتين لم تحسن السوفسطائية ما اختارت ، ولم تتثبت من تطبيق ما ابتكرت •

وكانت خطورتها الحقيقية تكمن في طبيعة الشك التي سربلت الحياة كلها حتى شملت العلم ذاته • فاضعفت حقائق الدين وزعزعت كيان التربية ، فاثارت العديد من المشكلات ••• ومهما كان الشك طريقا في العلم فان هدفه تحديد حقيقة من حقائق العلم ذاته • اما ان نسلك طريقا يؤدي بنا في غاية الشوط الى الطعن حتى في المعرفة التي نريد ، فهذا امر لا يرتضيه انسان ولا يركن له الوجدان •

وعلى الرغم من هذا فالسوفسطائية سورة حادة لها مميزاتها ولها سيئاتها على السواء • فلعل فيما سببته من معارضات لآرائها ونزعاتها ما أدى الى نتاج جديد تمثل باقانيم من القمم الثلاث : سقراط وافلاطون وارسطوطاليس • وسنعرض لحياتهم وأفكارهم في دراسة قابلة ان شاء الله •

التعليقات

(١) أنظر :

J. H. Randall and J. Bucher, Philosophy, an: Introduction, New York, 1942, p. 2-4.

(٢) فيلسوف بريطاني مرموق ، ولد عـام ١٨٦١م • اجتـاز ثلاث مراحل في تحقيق بنائه الفلسفي : الاولى اتجه فيها نحو الرياضة والمنطق ، والثانية درس فيها الطبيعة وشمولها ، والثالثة ركن فيهـا الى الميتافيزيقـا ونتائجها الفوقية •

قارن ـ د• زكي نجيب محمود ـ فلسفة وفن ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٢٧ ـ ١٣٩ •

(٣) أنظر :

D. Runes, Dictionary of Philosophy, New York, 1942, p. 235.

(٤) من هـؤلاء رسـطوطاليس قديمـا ، ونيتشه وزيلر وبرنت وكورنفورد حديثا •

(٥) أنظر :

J. Burnet, Early Greek Philososphy, London, p. 1-30, 1963

(٦) أنظر :

G. Sarton, History of Science, Harvard, 1952, p. 66 ff.

(٧) أنظر : أ• وولف ـ عرض تاريخي للفلسفة والعلم ـ الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٧ • يؤيد هذا الرأي ديوجنيس في كتابه (حياة الفلاسفة) ويؤيده ميلو هود حديثا •

(٨) أنظر :

H. Frankfort, Myth and Reality, Harmon-Sworth, 1951, p. 15

(٩) المقصود بعبارة (الشعب اليوناني) هو مزيج من سكان البحر الابيض المتوسط من كريتيين وآخيين وغزاة مختلفين كالايونيين والدوريين الذين جاءوا من الشمال واصطنعوا الحضارة الكريتية •

(١٠) شخصية الشاعر العظيم هومر (القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد) نسيج وحدها في الآداب العالمية ، ذلك لما يثار حولها من أجنحة الخيال الناكرة لوجودها تارة ، والمثبتة أخرى • وقد تمثلت في الرجـل خصائص عصره التي ورثها عن أسلافه ، حيث ظهرت هذه الخصائص في ملحمتيه الشهيرتين (الالياذة) و (والاوديسة) • تلك المعجزة التي ابتدعتها الهومرية فطبعت الفكر الانساني بطابعها المتميّز العميق حتى عصر الناس هذا •• وعلى الرغم من ذيوع صيت الملحمتين فان هومر لم يدونها تدوينا كتابيا لانه لم يهتم بالتدوين الا على انه وسيلة للتفاهم فحسب ، ولم تكتمل الملحمتان في تاريخ واحد معيّن ، ولكننا نلمس بوضوح ما بينهما من مميزات مشتركة من ناحية النحو والبلاغة والعروض • على ان الفرق بينهما كبير في الموضوع والطابع كما اشرنا في أصل الكتاب •

وأول طبعة للنص اليوناني لهما قام بها ديميتريوس خلقوند ليس عام (١٨٨ – ١٨٩ م) متبعـا تقسيمهما القديم الى أربع وعشرين انشودة مرتبة على عدد حروف الهجاء ، وضعت في ستة كتب في كل كتاب أربعة أناشيد •

وأول ترجمـة للاليـاذة الى اللغـة العربية قام بها الاستاذ سليمان

البستاني ونشرت عام ١٩٠٤ في القاهرة • ومن الترجمات الادبية المتأخرة للملحمتين معا هي ترجمة الاستاذ دريني خشبة تحت عنوان (قصة طروادة) و (الاوذيسة) وذلك عام (١٩٤٤ - ١٩٤٥) في القاهرة ، ويغلب على الترجمة الاخيرة روح التصرف والصنعة الادبية :

أنظر :

J. H. Finley, Four Stages of Greek Thought, Oxford, 1966, Chop. I.

R. C. Jebb, Homer, An Introduction to the Iliad and Odyssey, Glassgow, 1819.

E. Zeller, Outlines of the History of Greek Philosophy, Trans. into English, by L. Palmer, London, 1955, p. 24 ff.

J. Burnet, Early, op. cit. p. 4.

G. Kirk and J. Raven, The Presocratic Philossphers, Cambridge, 1957, p. 8 ff.

وأنظر أيضا :

سارتون - تاريخ العلم - الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ١/٢٩١ - ٢٩٦ وديورانت - قصة الحضارة - الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٦/ف٣/٨٦ - ١٠٠ ، ومحمد صقر خفاجة - النقد الادبي عند اليونان ، القاهرة ١٩٦٢ ، المقدمة •

(١١) المراد (بالآلهة الاولمبية) تلك الآلهة الارضية التي تسكن الاولمب اليوناني وتتخذه مقراً لاقامتها •

(١٢) من الشعراء المتجولين ، امتهن الزراعة كأبيه ثم تركها وخلص للشعر متمثلا اياه بالانشاد والوعظ والترتيل • وأول نشرة لقصيدة (الاعمال والايام) قام بها بونس اكيودوسيوس في ميلانو عام (١٤٧٨ -

(١٢) • وأول شرح لقصيدة (أصل الآلهة) كان لزينون الرواقي •

أنظر :

J. Burnet, Greek Philosophy: Thales to Plato, London 1968, p. 22, 12.

وأيضا : ول ديورانت ـ قصة الحضارة ، ١٨٦/٦ •

(١٣) أنظر : جورج سارتون ـ تاريخ العلم ، ٣١٩/١ ، ٣٥/٢ •
والمقصود بنات زيوس آلهات الجمال الثلاث : المرح والبهاء والازدهار ، ومهمتهن زيادة مسرات الحياة الدنيا •

(١٤) يقول هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي المعاصر (أنظر : منبعا الاخلاق والدين ـ الترجمة العربية ، القاهرة ، ١٩٤٥ ص ١٩٩) : « نحن نرى في الواقع ان الحماسة الديونيسية قد استمرت بالاورفية ، وان الاورفية استمرت بالفيثاغـورية ، والى هذه ربمـا يرجع الوحي الاول للافلاطونية • فنحن نعرف في أي جو من السر ـ بالمعنى الاورفي للكلمه ـ كانت تتموج الاساطير الافلاطونية • وكيف انعطفت الافلاطونية في حنان خفي الى نظرية الاعداد الفيثاغورية •• وهكذا نرى أن قـد كان البدء تشربا بالاورفية ، ثم كانت النهاية ان انشق الجدل عن التصوف • ومن هنا نستطيع ان نستخلص ان ثمة قوة فوق العقل هي التي خلقت هذا التطور العقلي وانتهت به الى غايته ، الى ما وراء العقل » •

(١٥) أنظر : ارسطوطاليس De Anima ـ ترجمة اسحق بن حنين ـ نشرة د• عبدالرحمن بدوي وبضمن المجموعة نشر كتاب (الآراء الطبيعية التي ترضى عنها الفلاسفة) لفلوطرخس القاهرة ١٩٥٤ •

(١٦) أنظر بحث المؤلف عن (الانسان وموقفه من الكون في العصر اليوناني الاول) ـ مجلة عالم الفكر ، وزارة الارشاد الكويتية ـ العدد الثالث اكتوبر ١٩٧٠ حيث أشار الى معالم هذا الموقف •

(١٧) نسبة الى Miletus (ملطية) وهي ميناء معروف من مواني ايونيا ، يقع شرق بحر ايجه أي وسط الساحل الغربي لآسيا الصغرى • اشتهر بالتجارة حيث كان همزة الوصل بين ايونية ومصر وفينيقيا والبحر الاسود • وتقع المدينة بالقرب من مصب نهر مياندروس وقد استعمرها الكريتيون لفترة من الزمان • وهذه الصلات التجارية وطدت يومذاك صلاتها الثقافية مع جيرانها من الشرقيين فظهرت معالم اتجاهات فكرية جديدة فيها وفي مدن أفسوس وساموس • ثم انتشر نور المعرفة العتيد غربا ـ كما بدء شرقا ـ فهاجر قسم من المفكرين الى ايطاليا وغيرها • وأخيرا ظهرت اثينا على المسرح عند هجرة انكساغوراس اليها حوالي القرن الخامس قبل الميلاد •

(١٨) أنظر :
Plato, Socratic Discours, London, Everymen's Lib., 457, 1947, Protagoras, 343, p. 274.

(١٩) أنظر ، كتاب الميتافيزيقا ـ لارسطوطاليس ـ نشرة اكسفورد باللغة الانكليزية باشراف الاستاذ ديفيد روس :
Arist. Met. B. I. 3, 983b

(٢٠) أنظر :
Arist. De Anima, B. I. 2. 411a

(٢١) أنظر :
K. Freeman, Companion to the Pre-Socratic Philosophers, Oxford, 1966, p. 5 ff

(٢٢) رواية هيبوليتوس عنه • ويرى الاستاذ زيلران نسبة الرواية ضعيفة لان المدرسة الايونية لم تدرك العناصر الاربعة مستقلة الواحدة عن الاخرى •

(٢٣) أنظـر : تاريخ الفلسفة الغربية ـ برتراند رسل ـ الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ١/٥٦ ٠

(٤٢) ثغر قديم أسسه الاخيون والاسبرطيون عام ٧١٠ ق٠م اشتهر بالصناعة والتجارة والعاب الاولمبياد والطب ٠

(٢٥) أنظر :

Plato, Pheado, Trans. by D. Stewart, Euphorion Books Oxford, London.

(٢٦) أنظـر : تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، القاهـرة ١٩٤٦ ،ص٢١ ٠

(٢٧) تنحصر القواعد التي اشرنا اليها على الوجه التالي :

١ ـ ان تمتنع عن أكل الفول ٠

٢ ـ الا تلتقط ما قد سقط ٠

٣ ـ الا تمس ديكا أبيض ٠

٤ ـ الا تكسر الخبز ٠

٥ ـ الا تخطو من فوق حاجز ٠

٦ ـ الا تحرك النار بالحديد ٠

٧ ـ الا تأكل من رغيف كامل ٠

٨ ـ الا تنزع الزهر من اكليل ٠

٩ ـ الا تجلس على مكيال ٠

١٠ الا تأكل قلبا ٠

١١ـ الا تمشي في الطرق العامة ٠

١٢ـ الاّ تسمح للعصافير ان تبني أعشاشها في دارك ٠

١٣ـ اذا رفعت القدر عن النار فلا تترك اثرها على الرماد ، بل امزج الرماد بعضه ببعض ٠

١٤ـ لا تنظر الى المرآة بجانب النور ٠

١٥ـ اذا ما نهضت من فراشك فاطو الفراش وسوّ موضع جسدك منــه ٠

(أنظر : رسل ـ تاريخ الفلسفة الغربية ـ ١/٦٥ ـ ٦٦) وكذلك :
Burnet, Early, op. cit. p. 96.

(٢٨) مما يستلفت النظر حقا انهم حرّموا لبس (الصوف) لانه نتاج حيواني ! ٠ ولعلهم ـ كما يدعي البعض من المؤرخين ـ ينحون نحو عناصر مصرية وباخوسية في موقفهم هذا ٠

(٢٩) أنظر : Burnet, Early, op. cit. p. 108

(٣٠) يؤيد هذا الموقف كورنفورد بقوله ان الفيثاغورية أتت بفلسفة موحدة عند افتراضها ان الاصل هو المونادا الاول الذي يسبق الزوجي والفردي في المتضادات ٠

(٣١) أنظر : رسل ـ تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/٧٠ ـ ٧١ ٠

(٣٢) أنظر :
T. Heath, History of Mathematics, Vol. I. p. 23 ff.

(٣٣) أنظر :
Burnet, Greek Philo. op. cit. p. 35.

(٣٤) أنظر : سارتون ـ تاريخ العلم ، ١/٤٣٧ ـ ٤٣٨ ٠

(٣٥) أنظر :

S. Sambursky, The Physical World of the Greek, (Eng. trans.) London, 1956, p. 26

يؤكد مؤلف الكتاب المذكور ان فيثاغورس متأثر ولا شك بالرياضيات المصرية والبابلية التي سبقت عصره بما يقرب من ألف وخمسمائة عـام • ولكن لم يقتصر موقفه على هذا التأثر فحسب والا لما نال فيثاغورس هـذه الشهرة وهذا الصيت العريض في العلم •

(٣٦) هنـاك اختلاف كبير في ميلاده ووفاته ، وقـد اعتمدنا رواية زيلر • وقسم من الباحثين يذهب الى انه ازدهر وتوفي ما بين (٥٣٦ ـ ٤٧٠ ق•م) •

أنظر مثلا :

D. Runes, Dictionary of Philo. p. 124.

(٣٧) يشك برنت وفريمان في صحة هذا التقسيم ويميلان الى انه من عمل أحد الرواقيين أو أحد المعاصرين لهم •

(٣٨) نشـر شلير ماخر عام ١٨١٧م الشذرات نشرة فيلولوجيـة تحقيقه بقيت لفترة من الزمن يعتمد عليهـا كل الاعتماد • وهنـاك نشرة ممتازة قام بهـا هرمان ديلز للنص اليوناني بشكل عـام • ثم اعقب ذلك ترجمات للشذرات ذاتها نهض بها باي ووتر وبيجر وكورنفورد وبرنت وفريمان •• وهناك ترجمة باللغة الانكليزية نشرتها مكتبة لويب الكلاسيكية سنة ١٩٣١ مع ملحق لما كتبه ديوجينس عن هرقليطس وحياته • وأخيرا ترجم قسما من الشذرات الى اللغة العربية المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الاهواني ضمن كتابه (فجر الفلسفة اليونانية) •

(٣٩) اقتبسنا هذه النقاط من كتاب الاستاذ الاهواني ـ فجر الفلسفة اليونانية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ •

(٤٠) أنظـر : كتاب (الآراء الطبيعية التي ترضى بها الفلاسفة ـ لفلوطرخس) ، ترجمة قسطا بن لوقا ، ص ١٠٢ ـ نشرة بدوي السابقة الذكر ٠

(٤١) يقول رسل (الفلسفة الغربية ـ ١/٨٩) ان الطاقة هي مجرد صفة تميّز العمليات الفيزيائية ـ فلو جاز لنا ان نجمح بخيالنا فنجعلها هي النار التي دعا اليها هرقليطس ٠ على ان نتصور انها الاحتراق نفسه لا ما يحترق ، فما يحترق قد اختفى من علم الطبيعة الحديث ٠ كما انه ليس في وسع العلم ان يفند مذهب التغيّر الدائم الذي نادى به هرقليطس ٠

(٤٢) أنظر : رسل ـ تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/٨٣ ٠

* * *

فلاسفة الثبات والوجود

(٤٣) يصعب من الناحية التاريخية اعتماد سنة معينة لولادة ووفاة بارمنيدس ٠ ولكن اخذنا برواية افلاطون التي يذكر فيها اللقاء الذي تمّ بين سقراط وبارمنيدس وزينون حيث وفد الاخيران منهم الى اثينا وكان بارمنيدس يبدو مهيب الطلعة يكاد شعر رأسه يستحيل كله بياضا ، ويقدّر عمره حوالي الخامسة والستين ٠ أما صاحبه (أي زينون) فيبلغ الاربعين عاما ٠٠ واستقر بهم المقام في حي سيراميكوس ، واجتمع اليهما سقراط ، واستمع الى زينون وهو يقرأ بعضا من فقرات كتابه ٠ وكان سقراط يبدو يومذاك يافع السن غضّ الاهاب ٠

والرواية بأسلوبها هذا تفرض حلا تقريبيا لولادة بارمنيدس هو عام (٥١٥ ق٠م) باعتبار ان سقراط كان في العشرين من عمره عند اجتماعه بالرجل ٠ وسقراط توفي عام (٣٩٩ ق٠م) ٠ فأقرب احتمال ان الاجتماع وقع عام (٤٥٠ ق٠م) فحسب !

أنظر مثلا :

Plato, (a) Parmenides, 127A
(b) Theatetus, 1837
(c) Sophists, 217C

كذلك قارن : Kirk and Raven, op. cit. p. 263

(٤٤) يحدد زيلر تأثرات بارمنيدس بالفيثاغورية حصرا بالامور التالية : النجوم وحركاتها ، القمر واستمداد نوره من الشمس ، اضافة الشكل الكرى الى الارض .. وما عدا ذلك ففلسفته بعيدة الصلة عنها .

أنظر : Zeller, op. cit. p. 49

(٤٥) أنظر :

Russell, Our Knowledge of the External World, London, 1952, p. 170

(٤٦) د. الاهواني ـ فجر الفلسفة اليونانية ، ص ١٢٩ .

(٤٧) مبدأ الذاتية وعدم التناقض اساسان في المنطق الصورى . كان فضل استعمالهما يعود لبارمنيدس بالذات .. والمنطق لدى المعلم الاول ينهض على أصول المبدأ الثاني بشكل عام ، ولا يزال للمبدئين اثرهما الكبير على المنطق الحديث .

ويتمثل الاول منهما بالشكل التالي :

Z هـي y

Z تحمل ذات الصفات الذاتية لـy

$\therefore Z = y$

أو نقول : Z لا تحمل الصفات الذاتية لـy

Z تختلف عن y

$\therefore\ Z \neq y$

ويتمثل المبدأ الثاني بالصور التالية :

A لا يمكن ان تكون لا A

ولا A لا يمكن ان تكون A

أنظر مثلا :

A. Tarski, An Introduction to Logic, New York, 1954, p. 54.

(٤٨) أنظر : مخطوطة كتاب الشفاء لابن سينا ـ قسم السماع السماع الطبيعي ، مكتبة بودليانا ، اكسفورد ، تحت رقم :

Ms. Pococke, 125

ونميل الى اعتبار المخطوطة هذه من اسلم واصح مخطوطات الشفاء في الغرب • ويقوم المؤلف حاليا بتحقيق قسم السماع الطبيعي منها •

(٤٩) أنظر :

Plato, (a) Parmenides, 128 A-D
(b) Pheadrus, 261 D

يقدم افلاطون زينون محاورا في (بارمنيدس) ولكن لا يحاول خلال الحوار مناقشة آرائه الرياضية بل يكتفي برد حججه ضد الكثرة • بينا يصفه في محاورة (فيدراس) بانه رجل « يجعل الشيء والشيء نفسه يظهران متشابهين ومختلفين ، واحدا ومتعددا ، ساكنين ومتحركين » •

(٥٠) قياس الخلف من أكثر القوانين المنطقية تأثيرا على الفكر القديم ، يعرّفه الشيخ الرئيس ابن سينا بانه القياس الذي تبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقيضه ، فيكون هو بالحقيقة مركبا من قياس اقتراني ومن

قياس استثنائي •

ويمكن صياغته حديثا على الوجه التالي :

اذا كان (P , C يلزم عنهما E)

فاذا افترضنا ان النتيجة كاذبة وان P صادقة

ينتج من ذلك ان C كاذبة أيضا :

[(P ٦ ← (∧ E ٦) ← (E ← C ∧ P)]

ويترجم الاستاذ ديفيد روس قانون الخلف الى العبارة التالية :

Reduction ad impossible. بينا ترد أحيانا تحت تركيب أخر هــو : Reductio ad obsurdum. والاستعمال الاخير يصطلح في الرياضيات عادة ، ويمتاز بانه برهــان مباشر يختلف بعض الشيء عن قياس الخلف •

أنظر : ابن سينا ـ كتاب النجاة ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٥٥

وكذلك :

D. Ross, Aristotle, London, 1956. p. 35

A. Tarski, op. cit. p. 159.

(٥١) أنظر : طبيعيات ارسطوطاليس بنشرة ديفيد روس باكسفورد

Arist., Physica, 9, 136b

وبالنسبة لموقف الرواقية تجاه هذه الحجج قارن :

R. Hicks, Stoic and Epicurean, New York, 1962.

(٥٢) أنظر :

Burnet, Early, op. cit. p. 362.

(٥٣) قارن :

Russell, Our Knowledge, op. cit. p. 174.

(٥٤) أنظر :

Plato, Parmenides, 128ff.

(٥٥) اخترنا الحجج الاربع ضد الكثرة بصياغة الأستاذ المرحوم يوسف كرم • أنظر كتابه ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣١ •

(٥٦) هذه الحجه موجهة ضد بروتاغوراس ومعرفته الحسية

قارن : Burnet, Greek Philo. op. cit. p. 93.

(٥٧) أنظر : الطبيعة لارسطوطاليس ـ ترجمة اسحق بن حنين مع شروح ابن السمح وابن عدى ومتي بن يونس وابي الفرج بن الطيب ـ نشرها دكتور بدوي، القاهرة ٦٤ ـ ١٩٦٥ ٢/٧١٧ ـ ٧١٨ • حيث اعتمدنا النص القديم للحجج •

(٥٨) يعلـق ابن الطيب (الطبيعة ـ سابقا ـ ٢/٧١٧) في شرحه على هذه الحجة فيقول : ان اراد بهذه الانصاف التي لا نهاية لها ، الانصاف المتوهمة والنقط ، فان هـذه تمـر في الوهـم بلا نهـاية • وان اشـار الى القطع الموجود فهذا انما قطع شيء هو موجود بالفعل ، وهذا الموجود بالفعل هو متناه بالفعل وكان القاطع انما يقطعها بالفعل ، فيجب ان يتناول هذا القطع ما هو موجود بالفعل لا غير • وما هو موجود بالفعل ليس هو بلا نهاية ، فليس يقف قطع القاطع للبعد عن الفراغ مما لا نهاية له •

وتعليق ابن السمح هنا يبدو وبشكل خفي أنه ادرك في الفرض الاول المعنى الرياضي ادراكا مبهما في حجة زينون حين قال « فان هذه تمر في الوهم بلا نهاية » اما الناحية الثانية فهو يكرر موقف القدماء نحو الحجة ، اولئك الذين ادركوا منها الناحية الفعلية والواقعية • وهو أمر لم يقصده الحكيم الايلي •

(٥٩) يعلـق ابن الطيب أيضا (أنظر : المصدر السابق ٢/٧١٧ ـ ٧١٨) على هذه الحجة فيقول : هذا الشك انما نتج عن قوله بالتصنيف

(القسمة الثنائية) الذي أخذه بالفعل وهو موجود بالقوة • فاما ان يسلّم ان المتناهي الاقطار يقطع فانه لا محالة يلزم ان يلحق السريع البطيء ، الا ّ ان يكون البطء في آخر المسافة • الا ّ ان السابق ، أي السريع ليس يلحق البطيء حتى يكون سابقا أي حتى يكون سريعا ، بل يلحق بعد زمان ، وانما يجب ان يلحق لان السريع هو القاطع مدى طويلا في زمان قصير • والبطيء هو القاطع لمدى قصير في زمان طويل • فليس يمتنع ان يكون في الزمان الذي قطع البطيء فيه الذراع في نصفه يقطع السريع ذلك الذراع وشبرا ، فاذا قطع البطيء الشبر الزائد في نصف ذلك الزمان وهو نصف ساعة ، وفي نصف ساعة يقطع السريع الذراع والشبر الزائد ، فهو لا محالة يلحقه !

(٦٠) يقول ابن الطيب (أنظر : المصدر السابق ٢/٧١٨) : والغلط الذي دخل في هذا التشك من قبل انه اخذ فيه ان الزمان الذي فيه يقطع المتحرك العِظم الساكن يجب ان يكون مساويا للزمان الذي يقطع فيه متحرك آخر مساوٍ في السرعة لهذا العِظم أيضا متحركا في خلاف جهة القاطع • وهذا الاخذ كذب ، ذلك ان قطع كل واحد منهما اذا تحرك الى ناحية صاحبه فقد اشتركا في القطع ، فقل ّ زمان القطع لو كان المتحرك واحدا ، الا ّ انه اسرع !

(٦١) أنظر : Russell, op. cit. p. 187.

وأنظر كذلك :
H. Bergson, Essai sur les donnees immediates de la Conscience, Paris, 1940, p. 65 ff.

ومن المستحسن الرجوع الى كتاب الاستاذ رايل حيث يبحث المعضلة بشكل أدق وأكثر جدية :
G. Ryle, Dilemmas, Cambridge, 1966, p. 36-53.

(٦٢) نحن نميل الى الاعتقاد بان سبب هذا الموقف لدى القدماء وبعض المحدثين هو ايحاء افلاطوني خالص ! حيث ورد في محاورة (بارمنيدس) على لسان زينون بانه لم يأت بجديد اكثر مما قاله الاستاذ من قبل ! واخذت العبارة كأنها صادقة كل الصدق • وانها تمثل حقا موقف زينون القديم • ولسنا ننعى على الرجل صدقه في عبارته أو كذبه ، ولكن موقفه كان ولاشك مجلبة واداة بيد القدماء والمحدثين للحكم المبتسر على زينون •

(٦٣) أنظر : Kirk and Raven, op. cit. p. 299.

(٦٤) أنظر : الطبيعة ـ ارسطوطاليس ، ١/١٩ ٠

(٦٥) يعلّق ابن السمح (أنظر : الطبيعة ـ سابقا ـ ١/١٩ ـ ٢٠) على موقف مليسوس فيقول : اعلم ان هذا العكس الذي ذكره هو قد رام فيه العكس الجاري على سبيل التضاد ٠ ومن حق هذا العكس ان يرفع التالي ليرتفع معه المقدم ، ولا يرفع المقدم فيرتفع معه التالي ٠ كما اننّا اذا قلنا : كل ما هوانسانفهو حيوان لم يجز القول بان كل ما ليس بانسان فليس بحيوان ٠ بل يقال : كل ما ليس بحيوان فليس بانسان ٠ فكذلك القول : كل ما هو مكوّن فله مبدأ ـ عكسه الجاري على التضاد : كل ما ليس له مبدأ فليس بمتكون ٠ واذا ضم هذه المقدمة الى قوله : ما ليس له مبدأ فليس له نهاية ، كان الاقتران من سالبتين ٠٠ والعكس الذي ذكره انما يصح اذا كان المحمول والموضوع متساويين ٠

(٦٦) يعلّق يحى بن عدى (أنظر : الطبيعة أيضا ، ١/٣٥٥) على هذا الرأي بقوله : لما قال مالسس (مليسوس) ان الكل بلا نهاية أحال ان يتحرك لانه قال ليس شيء فيه ، وذهب عليه ان حركة الاستحالة لا تحتاج الى تبديل المكان ، والحركة الدورية أيضا انما تكون في مكان المتحرك أيضا ٠ والحركة المستقيمة تكون من دون خلاء اذ كانت بالتبدل ٠

(٦٧) أنظر : يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣٣ ٠

(٦٨) أنظر : H. Diels, Frag. Vol. I. T. 3, p. 301.

(٦٩) للوقوف على آراء فيلولاوس وايرتيوس مفصـــلا يستحسن الرجوع الى المصادر التالية :

(a) K. Freeman, Pre-Socratic Philosophers.
(b) Kirk and Raven, Pre-Socratic Philosophy.
(c) Burnet, Early Greek Philosophy.

ولقد ذكرنا مصادر نشرها وتاريخ الطبع في التعليقات السابقة

(٧٠) أنظر :
Russell, An Outline of Philosophy, London, 1927, p. 262ff.

* * *

(٧١) أنظر : Burnet, Early, op. cit. p. 197.

(٧٢) من طريف ما ينقل عنه قوله في الشذرة التالية : « بشراكم جميعا ايها الاصدقاء الذين يسكنون المدينـــة الكبرى المطلة على صخرة اكراجاس الصفراء ، والشامخة بذروتها الى جانب القلعة ، الذين يشغلون انفسهم بخير الفنون ويفسحون من أرضهم سهلا للقريب ، الذين لا يعرفون كيف تكون الوضاعة • انى لأتحرك بينكم الها خالدا ! فلست الآن بالفاني ! انزل من الجميع منزلة التكريم كما ينبغي ان يكون ، وتتوج هامتي اكاليل الزهر • انني كلما دخلت أبواب المدن الزاهرة وجدت اجلالا • ان الناس ليتبعونني جماعات جماعات لا عدد لافرادها ، يسألونني كيف السبيل الى الكسب • بعضهم يطلب مني نبوءة بما هو آت ، وبعضهم يلتمس مني كلمة تبرئهم مما ألم بهم من علل أشقتهم بآلامها اياما عديدة •• لكن فيمَ تشدقي بهذه الاشياء ، كأنما هي عظيمة من عظائم الامور ان امتاز على الناس الذين يعتورهم الفناء والفساد !

أنظر : رسل ـ الفلسفة الغربية ، ١/١٠٣ •

(٧٣) يروى عن تناسخه دعواه انه وجد نفسه أول الامر صبيا ثم بنتا ثم شجرة فطائرا ، ثم سمكة بكماء في البحر • فكأنه طوّف في عالم المخلوقات وأنواعه •• وموقفه هذا أقرب الى التجديف الفكري منه الى العقل السليم •

(٧٤) أنظر : Zeller, op. cit. p. 54-55.

(٧٥) استعار امبادقليس الفاظا معنوية للعناصر حصرها بما يلي :

Zeus = النار ، Hera = الهواء ، Aidoneus = التراب ، Nestis = الماء •

ولكن برنت يشك في صحة اختيار هذه الالفاظ ، مع تأكيده بانه لم يستعملها بدلالات دينية •

(٧٦) أنظر : ارسطوطاليس ـ كتاب الميتافيزيقا ـ نشرة اكسفورد
Arist. Met. 4. 985ᵃ 30

(٧٨) يذهب ارسطوطاليس الى ان المحبة والغلبة لا يمكن اعتبارهما

مبدأين بل هما مبدأ واحد لصورتين مختلفتين ، من حيث ان كل انفصال هو اتصال في حد ذاته • أنظر : كتابه الكون والفساد ، نشرة اكسفورد
Arist. de Gen. Corr. 2, 6, 333b

(٧٩) أنظر : ارسطو — Arist. Met. A, 4. 985a 21

(٨٠) يعلّق ابو بشر (أنظر : الطبيعة لارسطو ١/١٤٤) على قول امبادقليس بالاتفاق فيقول : « ليس في انّية الطبيعة ولا في طبيعة الطبيعة ان تفعل من اجل شيء • وعند ارسطو انها تفعل من اجل شيء ، فانها تنحو نحوه فهي فاعلة للشيء بحسب المادة • فاذا كانت مادة الاسنان رقيقة كانت الاسنان رقيقة تصلح لتقطيع الغذاء • والطبيعة تفعل لاجل تقطيع الغذاء •• وترقى بالبخار وتحدوه لا لينبت الزرع لكن ليعتدل الهواء فيكون عونا على تولّد الحيوان • وربما فعلت الشيء للغناء كاليد الزائدة ليستعان بها في الحمل ولتكون خلفا لمن فقد اليد الاخرى • وتعدّ البلغم والمني ليغتذى بهما العضو اذا فقد الغذاء فيبقى » ! ••

واما الضرورة فيستعملها امبادقليس بمعنى آلي في الطبيعة ، تماما كحركة نبتة عباد الشمس مثلا حين تميل نحو قرص الشمس نهارا ، حيث يحدث ذلك بالضرورة لا بقصد ديناميكي •

(٨١) يعلّق ابن الطيّب (انظر : الطبيعة سابقا — ٢/٨٠٨) فيقول : « قول امبادقليس ان الغلبة تصنع من الواحد كثيرا يعني من الاجرام الفلكية كثيرا ، أي اسطقسات (= عناصر) ، وان المحبة تصنع من الكثير واحدا وتؤلفها يعني انها تعمل من الاسطقسات جرما فلكيا ، ويقول ان بين استيلاء الغلبة واستيلاء المحبة سكونا ! » •

(٨٢) لعلّ امبادقليس يقصد هنا معنى مجازيا لفكرة الصورة الجوهرية في ابعادها الثلاثة الداخلية •

(٨٣) ليس ببعيد محاولة ما يتصوره الباحث من علاقة بين قصة الكون الخالد الصادر عن فكرة الخطيئة ، وبين حياة قبلية لم تكن صورتها سوى جنة وارفة الظلال ، مؤتلفة الاحوال ، ثم اقترف انسانها الخطأ فأهبط وزوجه أرضا — فكأن الحال الاولى محبة خالصة ، والحال الثانية غلبة للغلبة ، ثم اخيرا عود الى المحبة في يوم آخر طويل المقام وفي جنة عرضها السموات والارض •

وفرق — ولا شك — في الوسائل بين الموفقين ولكنهما يتصاديان في

مرحلة ، ويتباينان في اخرى !

(٨٤) يعتبر امبادوقليس وانكساغوراس من أوائل المستعملين لهـذا المصـطلح Nous بمعنى العقل أو الفكـر · استعملاه في الشـعر والنثر معا · وكان المقصود باللفظة بادىء الامر الادراك بأوسع معانيه حتى لدى الحيوانات الصغرى · ولكن تطورت اللفظة فحملت معنى القوة أو الملكة العقلية التي تخص معنى نوع الانسان فحسب كي يفرّقوا بينها وبين لفظـة Psychè التي تشمل المعنى القديم للمصطلح (نوس) ·

أنظر : W. Jaeger, Aristotle, Oxford, 1962, p. 50.

وأيضا : Runes, Dictionary of Philo. p. 215.

(٨٥) أنظر : سارتون ـ تاريخ العلم ، ٢/٥١ ·

ارسطو ينسب الدليل الى انكساغوراس (أنظر Arist. Phys. 213a)

ويوجد الدليل أيضا عند المشائين المتأخرين امثال يحى النحـوي وكذلك عند الاسلاميين ·

(٨٦) أنظر : Arist. de Sensu, 446a

(٨٧) أنظر :

Callur Books, New York, Time and its Mysteries, 1962, p. 26-27.

(٨٨) أنظر : رسل ـ تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/١٠٥ ·

(٨٩) لقد اورث سوفكليس واسخيلوس الحضارة اليونانية وآدابها ينابيع ثرّة في الشعر والفن وخاصة أدب المأساة · ومن الدراسات الجادة حول الموضوع كتاب الاستاذ .Finley ·

John H. Finley. Four stages of Greek Thought, Oxford, 1965, p. 53 ff.

(٩٠) أنظر : W. Jaeger. Aristotle, p. 427.

(٩١) اعتمدنا في ذلك على رواية ابولودورس التي اعتمـد عليهـا الاستاذ برنت ، واستقى الاول منهما رواياته عن ديمتريوس الذي استعارها بدوره عن مصادر قريبة من عصر انكساغوراس · وقد يكون هناك بعض

الاختلاف في أرقـام السنوات ولكننـا تخبرنا أدلة برنت في هـذا السبيل (أنظر : Burnet, Early, p. 251)

فمثلا يرى الاستاذ زيلر ان مكوثه في اثينا كان حوالي عام (٤٦٠ – ٤٣٠ ق٠م) ٠

أنظر : Zeller, op. cit. p. 60.

(٩٢) أنظر :
A. E. Taylor, Classical Quarterly, 1917, pp. 81-87.

(٩٣) أنظر : سارتون – تاريخ العلم ، ٤٢/٢ ٠

(٩٤) يميـل المؤرخ والباحث المعـروف تيلر الى ان محاكمـة انكساغوراس أجريت قبل تسلّم بركليس لسياسة بلاده ، أي ما يقرب من عام (٤٥٠) قبل الميلاد ٠٠ هذا اذا أخذنا برواية ان المحاكمة أجريت حقا ! وهناك روايات أخرى تدعي ان صديقه السياسي ساعده على الهرب قبل اجرائها ، ورواية تدعي ان الحكم صدر عليه بالنفي والابعاد فأخرج من البلاد عنوة ٠ ولعلّ اكثرها تواردا رواية الهرب بمساعدة صديقـه بركليس ٠

(٩٥) أنظر مثلا :
A. T. Olmstead, History of Persia, Cambridge, 1943, p. 328.

(٩٦) أنظر : Arist. Rhet. B, 23, 1398b 15

(٩٧) أنظـر : الموسوعة الفلسفية المختصرة (الترجمة العربيـة – القاهرة ١٩٦٣) مادة « انكساغوراس » – نشر الموسوعة في نصها الانكليزي الاستاذ J. O. Urmson ٠

(٩٨) أنظر : Arist. Met. A, 3. 984b 15.

(٩٩) يعلّق ابن السمح (أنظر : الطبيعة – ارسطوطاليس ٣٧/١ – ٣٨) فيقول : لما اخذ انكساغوراس ان الموجود لا يتكون مما ليس بموجود قال : ان الموجودات كلها موجودة ٠ ولما رأى ان الموجودات تتكون في الشيء الموضوع ، وان الضدّ لا يتكون الاّ عقيب ضده : كالحار عقيب البارد ، واسود عقيب لون آخر – قال ان الموجودات كلها والاضداد موجودة في كل شيء حتى ان الاسود فيه الابيض وكل ذي لون ، وكذلك الحار والبارد ٠ فعند

ذاك قال : ان كل شيء موجود في كل شيء وانما ينسب الشيء الى ما غلب عليـه ٠

(١٠٠) قارن هذا الموقف بما يشبهه عند ديوجنيس (حوالي عام ٤٤٠ ق٠م) من تلاميذ انكسيمانس ٠

(١٠١) لقد اثرت نظرية انكساغوراس في البذور على المدرسة الرواقية فأعطت لها بعض معالم نظريتها في (المزاج العام) ٠ والفرق الاساس بين الموقفين يـأتى بما قدمته الرواقية من توسـع في الموضوع خلال بحوثهـا الطبيعية ٠

أنظر :

S. Sambursky, Physics of the Stoics, (Eng. Trans.) London, 1959, p. 16 ff.

(١٠٢) يتحدث انكساغوراس عن العقل في شذراته فيقول : « جميع الاشياء الاخرى فيها جزء من كل شيء ، اما العقل فهو لا نهائي ، ويحكم نفسه بنفسه ، ولايمتزج بشيء ، ولكنه يوجد وحده قائما بذاته ٠ ذلك انه لو لم يكن قائما بذاته وكان ممتزجا بأي شيء آخر لكان فيه جزء من جميع الاشياء ما دام ممتزجا بشيء آخر ، اذ في كل شيء جزء من كل شيء ٠ ولو ان الاشياء كانت ممتزجة بالعقل لحالت بينه وبين حكـم الاشياء ، كما يحكم نفسه وهو قائم بذاته ٠ ذلك ان العقل الطف الاشياء جميعـا وانقاها ٠ عالم بكل شيء ، عظيم القـدرة ٠ والعقل يحكـم جميع الكائنات الحية كبيرها وصغيرها ٠ وهـو الذي حرّك الحركة الكليّة فتحركت الاشياء الحركة الاولى ٠ وبدأت الاشياء تتحرك من نقطة صغيرة ولكن الحركة الآن تمتد الى مسافة اكبر ٠ ولا تزال تنتشر ، والعقل يدرك جميع الاشياء التى امتزجت وانقسمت ، وهو الذي بثّ النظام في جميع الاشياء التي كانت والتي توجد الآن والتي سوف تكون ٠ وكذلك هذه الحركة التى تدور بمقتضاها الشمس والقمر والنجـوم والهواء والاثير المنفصلين عنها ٠ هذه الحركة هي التي احدثها الانفصال ٠ فانفصل الكثيف عن المتخلخل ، والحار عن البارد والنور عن الظلمة واليابس عن الرطب ٠ وكانت هناك أشياء كثيرة ٠ ولا ينفصل او ينقسم شيء عن شيء انفصالا او تمييزا مطلقا ما عدا العقل ٠ العقل كله متشابه ، كبيره وصغيره ولا شيء آخر يشبه شيئا آخر ، بل كل شيء من الاشياء يشبه تلك الاشياء التي يحتويها اكثر من غيرها » ٠

أنظر : د٠ الاهواني ـ فجر الفلسفة اليونانية ص ١٩٤ ٠

(١٠٣) يستحسن ان نلاحظ ان انكساغوراس يستعمل هنا اصطلاح

(الهواء) بينما يستعمل امبادوقليس لفظ (الاثير) • ومعنى الاخير عند امبادوقليس مساو للنار •

(١٠٤) لقد أدت هذه الفكرة الاولية أعني (لا مادية العقل) الى امتداح بادىء الامر لموقف انكساغوراس من قبل سقراط • فلقد تحدث افلاطون على لسان الحكيم في محاورة (فيدون) فقال : « استمعت الى رجل كان عنده كتاب انكساغوراس وطالع فيه ان العقل هو المصرّف والعلّة لكل شيء • ولشدّ ما اغتبطت لذكر هذا الرأي ، وقلت لنفسي اذا كان العقل هو المسيّر فانه سيسير بكل شيء الى صورته المثلى ويضع كل شيء أحسن موضع •• لقد تناولت الكتاب متلهفا لاعلم أمر الامثل والاسوأ ، فتلوته مسرعا ما استطعت الى السرعة سبيلا ، وقد رجوت آمالا لم اكن لابيعها بكثير ••• ما ابعد ما رجوت من امل وما اسوأ ما عدت به من فشل ! فما مضيت حتى ألفيت فيلسوفي قد نبذ العقل نبذا كما نبذ كل ما سواه من اسس الاتساق وانتكس الى الهواء والاثير والماء وما اليها من شوارد الآراء ، فكان عندي اشبه برجل أصرّ بادىء ذي بدء ان العقل هو علّة افعال سقراط بصفة عامة ، فلما أراد ان يبيّن بالتفصيل أسباب افعالي العديدة أخذ يبرهن انني اجلس ها هنا لان جسمي مصنوع من عظام وعضلات •• »

(١٠٥) يرى الاستاذ برنت ان السبب الرئيس الذي دفع انكساغوراس الى التحدث عن العقل هو اهتمامه الخاص في التمييز بين علوم الحياة من جهة ، والقضايا الكونية من جهة أخرى • فاقتصر كلامه عليه ولم يتحدث عن النفس لان دلالة العقل عند اليونان عصر ذاك كانت ترتبط مع البدن الحي ـ اما الفصل بينهما فهو عائد لافكار سقراط وحواريه •

أنظر : Burnet, Early, p. 268.

(١٠٦) حاول ارسطوطاليس هدم البناء الذي اشاده انكساغوراس بخصوص العقل العام •

قارن : W. Jaeger, Aristotle, p. 383.

(١٠٧) ذهب المعلم الاول الى رأي مشابه لموقف انكساغوراس في مسألة الحس العضوي •

أنظر مثلا : Arist. Met. 5, 1009b 25

Zeller, op. cit. p. 62 وكذلك :

(١٠٨) يذكر الاستاذ ييجر أن أحـد أصدقاء انكساغوراس سأله مرة لماذا تستحق الحياة ان نحياها • فرد عليه : لاننـا قـد نتأمل من خلالها الكون !

W. Jaeger, op. cit. p. 75 أنظر :

* * * *

فلاسفة الذرة والآلية

(١٠٩) من الناحية التاريخية يأتي ابيقورس ولوكرتيس متأخرين زمانا عن مؤسس المدرسة لوقيبوس • ولقـد تحولت الذرية على يـد ابيقورس (٣٤١ – ٢٧٠ ق٠م) الى تنظيم فلسفي وكان له فضل انتشارها وشهرتها في العصر اليوناني الاخير • واما لوكرتيس (عام ٥٥ قبـل الميلاد) فقدّم عنها دراسة مفصلة في قصيدته المشهورة (في الطبيعة) التي رفع بها شأن ابيقورس وأفكاره • وتعتبر قصيدته تلك اكثر المصادر تفصيلا عن الفكر الذري القديم وخاصة عن الذرية الابيقورية •

أنظر :

Norman. W. De Witt, Epicurus and his philosophy, University of Minnesota Press, Minneapolis, 1964.

(١١٠) خالف ابيقورس موقف المتقـدمين الذين أخذوا بعـددية الاشكال اللانهائية للذرة ، بينما ذهب هو الى انهـا محدودة العدد في الشكل • (أنظر المصدر السابق) •

Arist. de Caelo, 300b (١١١) قارن

(١١٢) يرى هذا الرأي الاستاذ بيلي في كتابه (الذريون اليونان وابيقورس) وهو من الكتب الجيدة عن الذرية وأصولها •

C. Bailey, The Greek Atomits and Epicurus, Oxford, 1926.

اما اللورد رسل فيرى ان لوقيبوس ازدهر عام (٤٤٠ ق٠م) وقـد هاجر من ملطية متأثرا ببارمنيدس وزينون (انظر : رسل – الفلسفة

الغربية ، ص ٤١١) ..

ويحكي ديمقريطس في كتابه (نظام العالم الصغير) ان لوقيبوس كان (٤٠) سنة أصغر من انكساغوراس . فيكون ميلاده (٤٦٠ ـ ٤٥٧ ق.م) .

أنظر : Kirk and Raven, op. cit. p. 402.

(١١٣) يميل الاستاذان كيرك ورافن الى الشك بتلمذة لوقيبوس على يد زينون اعتمادا على رواية ديوجينس الموضوعة أصلا .

ولكن الاستاذ برنت برنت يأخذ بصحة الرواية وسلامتها مستندا بذلك على الصلات الخفية التي لمسها بين زينون ولوقيبوس .

(١١٤) حاول ابيقورس انكار شخصية لوقيبوس ! ولكن برنت انتحى رأيا خاصا آثرنا الاشارة اليه في متن الكتاب ..

(١١٥) أنظر :
Freeman, Ancilla to the Pre-Socratic Philosophers, oxford, 1966, p. 90 ff.

(١١٦) يرى ارسطو ان لوقيبوس وصاحبه ادعيا ان كل الاشياء الموجودة هي اعداد او انها تطورت عن الاعداد ، بحيث ان الايجاد لا يصدر عن تعدد يخرج عن الواحد ، ولا الواحد يخرج من التعدد بل يتعمن كليا في المركب منهما .

أنظر :
Arist. Met. 1039a
Arist. de Caelo, 303a

ولقد اتخذ الفلاسفة في الاسلام هذا الرأي قاعدة تبنوها فاحكموا فكرة اليونانيين حول الواحد الذي لا يصدر عنه الا واحد (شذ عن هذا السبيل الغزالي ونصيرالدين الطوسي) . وهي نظرة لاتنهض الا علىأساس من الوحدة المطلقة . ولعل غايتهم كانت تبرير نظرية الفيض (الصدور) الالهي التى استقوا أصولها من الافلاطونية المحدثة .

(١١٧) تقع مدينة ابديرا في الطرف الشمالي من بحر ايجه . وهى مدينة قديمة مزدهرة بالثقافة والتجارة .. ومن الطريف ما يروى عنها في الحكايات الشعبية انها مدينة الاغبياء ! رغم انهـا انجبت ديمقريطس

وبروتاغوراس وانكساغوراس .

(١١٨) يذهب بعض الباحثين الى احتمالات اثاروها حول مصادر الفكر الذري القديم ، حيث حاولوا الربط بين زيارة ديمقريطس للهند واطلاعه على آراء الذريين الهنود وبين ما انتهى اليه الرجل من نتائج فكرية . ولكن الواقع ان ذرية اليونان صورة للفرض العلمي الدقيق الذي اتخذ طريقه الآلي في التفكير ، بينما ذرية الهنود لفعتها صور اسطورية وخيالية . ومهما يكن فنحن لا نتنكر لتأثير الشرق على الغرب في بواكير اتجاهاته الاولى (أنظر مقدمة الكتاب) ولكن نشير هنا الى اننا نعتبر لوقيبوس هو المؤسس والرائد للمذهب الذري ، ولم يثبت ان الرجل رحل الى الهند ! . مع العلم ان تنقلات ديمقريطس نفسه يشوبها الشك وتعتورها الظنون .

(١١٩) أنظر : Burnet, Greek Philo. op. cit. p. 193.

(١٢٠) يميل الفيلسوف المعاصر رسل الى ان قسما من فلسفة ديمقريطس كان موجها ضد آراء بروتاغوراس السوفسطائي .

أنظر : تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/١١٤ .

(١٢١) أنظر : Kirk and Raven, op. cit. 403.

وينفرد زيلر بان عددها كان خمس عشرة رابوعة فيبلغ عددها الى ستين رسالة .

أنظر : Zeller, op. cit. p. 65.

(١٢٢) فيما يلي أمثلة لهذه الاقوال المنسوبة لديمقريطس :

- لا تحاول ان تعرف كل شيء ، اذا كنت لا تريد ان تجهل كل شيء .
- الشجاعة بداية العمل والمصادفة سيدة النهاية .
- تنشأ اللذات الكبرى عن التأمل في الاعمال الجميلة .
- البشاشة نتيجة الاعتدال في التلذذ والاتساق في المعيشة .
- من أهم الامور في الشدائد ان نفكر تفكيرا صحيحا .
- من يظلم اتعس ممن يُظلم .
- خير للمرء ان يستشير قبل الفعل من ان يندم بعده .

ـ النفوس الكبيرة تحتمل الاساءة بوداعة ٠
ـ من لم يكن له صديق وفيّ واحد لم يستحق أن يعيش ٠
ـ اطلب فن السياسة فانه اعظم الفنون جميعا ، وتحمل ما يقضي به من مصاعب ، فانها مصدر ما يرجوه البشر من نتائج باهرة ٠
(أنظر : سارتون ـ تاريخ العلم ، ٢/٥٩)

(١٢٣) يقول عنه كارل ماركس انه أول عقل موسوعي بين مجموعة الفلاسفة اليونان ٠ ويصفه لنين بانه اعمق واذكى رجل اوضح الفكر المادي في العصر القديم وهو موجد الذرية وصاحبها

أنظر :
M. Rosenthal and P. Yudin, Dictionary of Philosophy, Moscow, 1967, p. 115.

(١٢٤) المثال الذي يعطى في هذا السبيل هو :

(أ) تختلف عن (ن) في الشكل ، و (أ ن) تختلف عن (ن أ) في الترتيب ، وان (هـ) تختلف عن (ه) في الوضع ٠

ولسنا ندري هل المثال من أعمال لوقيبوس أو ديمقريطس ٠٠٠ ويميل برنت الى ان اصول المثال فيثاغورية (أنظر :
Burnet, Greek, op. cit. p. 79

(١٢٥) يحدثنا صدرالدين الشيرازي في كتاب الاسفار الاربعة (طبعة طهران ٤٣١/١) عن رأي من زعم من أصحاب الجزء ان الكيفيات المحسوسة في الاجسام الناشئة عن اختلاف أشكال الاجزاء التي لا تتجزأ ، فمثلا الشيء الذي يفرّق البصر يسمى البياض ، والذي يجمعه يسمى السواد ٠ ويعلل الطعم اللاذع بانه ناشيء عن اجزاء صغار شديدة النفوذ تقطع العضو ، والمتلاقي لذلك القطع هو الحلو ٠ وكذلك القول في الروائح والملموسات كالحرارة والبرودة ٠

ولكن هناك ولاشك فرق أساسي بين مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين وبين مذهب ديمقريطس ٠ فان ديمقريطس يرى ان للمادة كما للجواهر الافراد التى تتألف منها المادة خصائص أساسية معينة تكوّن ماهيتها ، وهي الصفات الاولية في الاصطلاح الحديث ٠ اما عند المتكلمين ابتداء من أبي الهذيل العلاف ومعمر وهشام وحتى الاشاعرة ومعتزلة بغداد فان الاعراض باعتبار انها جنس من الموجودات على حدته تختلف عن الجواهر

المجردة من جميع الصفات حتى الاولية منها • ويمكن ان تقوم اعني الاعراض عند المتكلمين مقام الصور والكيفيات عند الذين أخذوا بمذهب ارسطو فيما بعد •

قارن : مذهب الذرة عند المسلمين ـ تاليف شالمون بينس وترجمة الدكتور ابو ريدة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٨ •

(١٢٦) يرى المعلم الاول ان الاوائل جميعهم لم يتطرقوا الى فكرة الثقل والخفة المطلقين • ولكنهم عالجوا الامر بشكل اضافي فحسب •

قارن : Arist. Phys. 6, 213b

وكذلك : Arist. de Caelo, I, 308a

(١٢٧) ان أول من تبنى فكرة ان الذرات بطبيعتها ثقيلة هو أبيقور ، ولهذا فهي في رأيه تتساقط في خلاء لا نهائي • (انظر : (Burnet, op. cit. p. 341

(١٢٨) يقول فلوطرخس (أنظر : الآراء الطبيعية ، ص ١٥٨) : ان ديمقريطس يصف النفس بانها امتزاج بين الاركان المدركة عقلا التي شكلها كرى وقوتها نارية • وذات جزئين وان جزءها (النطقي) مركوز في الصدر وجزءها الذي لا نطق له منبث في جميع امشاج البدن •

(١٢٩) ان نظرية المعرفة عند ديمقريطس قامت أساسا لتحديد موقف الفيلسوف ازاء ما ادعاه بروتاغوراس من احكام الحس وتأثيراتها •

(١٣٠) قارن هذا مع التمييز الحديث بين الكيفيات الاولية والثانوية في المادة •

أنظر : Zeller, op. cit. p. 68

(١٣١) أنظر : Burnet, Greek Philo. p. 161

(١٣٢) يعتقد الاستاذ بيرنس ان ديمقريطس هو الواضع في الاصل لفكرة ان الفن هو احتذاء للطبيعة ، لان تصيّر الكائنات الحيّة هو عملية تناسق وتجانس في الاضداد •

أنظر : W. Jaeger, op. cit. p. 75

(١٣٣) لقد اعطى ديمقريطس اهمية واضحة للطبيعة العضوية في

الوجود ، فالكائنات تتولد من تراب الارض تولدا ذاتيا • وموقفه هـذا يدل على عمق في نظرية ايجاد العـالم Cosmogony وفي نظرية تولد الاعضاء الحية Zoogony •

(١٣٤) أنظر : رسل — تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/١٢٤ •

* * *

فلاسفة الانسان والنسبية

(١٣٥) أنظر : محمد صقر خفاجة — النقد الادبي عند اليونان ، القاهرة ١٩٦٢ ، ١/٢٢ •

(١٣٦) عندما انتصرت اسبرطة على اثينا اقامت الاولى حكومة أقلية عرفت باسم (حكومة الطغاة الثلاثين) وكان زعيمها كرتياس من تلاميـذ سقراط • ولـكن لم يستمر حكمهم سوى سـنة واحدة وعـاد النظـام الديمقراطي من جديد الى اثينا •

(١٣٧) أنظر : رسل — تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/١٣٩ •

(١٣٨) يحاول زيلر ان يقرن عبارة شيشرون التي قالها عن سقراط من انه انزل الفلسفة من السماء ووضعها في المدن وبين الناس ، وجعلها بحثا عن الاخلاق وعن الخير والشر — انها تحمل ذات الدلالة بالنسـبة للسوفسطائيين باعتبار ان كلاهما انصرف عن العلم الطبيعي واتجه نحو الانسان والبحث عنه • مع اختلافهما معا في المنهج والطريقة والموضوع عن الطبيعيين واتجاهاتهم •

أنظر : Zeller, op. cit. p. 75

(١٣٩) أنظر : Burnet, Greek Phils. p. 88

يقول اللورد رسل ان السوفسطائية لم تحاول انشاء مدرسة تتبنى مذهبا معينا تدافع عنه كما فعل القدماء •• بل كان هدفهـم تعليم فن النقاش وطريقة الجدل سلبا وايجابا • فجاء موقفهم صدمة عنيفة لاولئك الذين اتخذوا من الفلسفة اسلوبا للحياة مرتبطا بالدين اوثق رباط • ولذلك نظروا الى السوفسطائيين نظرتهم الى الغـِ العاجز ! واما سبب تعرضهم للكراهية من قبل افلاطون وغيره من الفلاسفة كانت ترجع الى تفوقهم العقلي • لذا حينما عارضهم افلاطون التزم بالتظاهر بمنطق الفضيلة باعتبار ان التشكك سبيل يخالف الاخلاق • لهذا فان افلاطون لم يكن أمينا حتى مع نفسه !

أنظر : رسل ـ تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/١٣٥ ٠

(١٤٠) أنظر :
Plato, Socratic Discoures, Protagoras, op. cit. 231

نود ان نشير هنا الى ان التعليقات التي نجدها في هذه المحاورة أو غيرها من المحاورات هي من أعمال افلاطون ، وضعت باختياره على لسان السوفسطائي بالشكل الذي أراد ٠ لان المحاورات جلّها ابتكار افلاطوني يضع هو مقدمتها أولا ويضمر نتائجها ثانيا ٠ فتبدو للقارىء الحديث وكأنها حوادث موضوعية قولا وفعلا ٠ ولعل أصدق محاورة في هذا المجال هي المحاورة السابقة (اعني بروتاغوراس) لان تاريخها لا يتجاوز عام (٤٣٢) قبل الميلاد أي قبل تأسيسه للاكاديمية ٠

ومهما يكن ففي هذا السبيل الذي اتخذه افلاطون في حواره ما يثير نقاط الضعف في جوانب المنهج على أقل تقدير ٠

(١٤١) أنظر : المصـــدر السابق (محـــاورة بروتاغوراس) فقرة 316 ، ص 310

ونلحظ هنا الخطأ المتعمد الذي يقع فيه افلاطون حين يدّعي على لسان بروتاغوراس نفسه ان هذا التستر سببه بغض الناس لهم ٠ بينا ـ كما اوضحنا في أصل الكتاب ـ لم يحمل اللفظ قديما هذا المعنى الذي يسبب البغض ٠ ولو كان كذلك لما اختار بروتاغوراس وغورغياس لنفسهما هذه التسمية ٠ فليس من المعقول ان يختار الانسان لنفسه صفة مرذولة ٠

ولعل اول من هاجم السوفسطائية هو الشاعر اريستوفان (٤٤٥ ـ ٣٨٥) قبل الميلاد في مسرحية (السحب) ـ ثم حمل عليها بشدة افلاطون ذاته في محاوراته الثـلاث : بروتاغوراس وغورغياس والسوفسطائي ٠ وكذلك شدد على منازعتهم من بعده ارسطوطاليس في كتابه (المغالطات) ٠

(١٤٢) أنظر : Plato, Sophist, 223b

(١٤٣) أنظر : Arist. Sophist. (Logica)

نشر الترجمة العربية الدكتور عبدالرحمن بدوي تحت عنـــوان (منطق ارسطو) ٠

قارن ٣/٧٤٧ ٠

(١٤٤) أنظر : احصاء العلوم ـ الفارابي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٦٥ ٠
وكذلك ابن سينا ـ منطق الشفاء ـ السفسطه ـ المقالة الاولى ف/٤/٣٦ ٠

(١٤٥) أنظر : د٠ الاهواني ـ فجر الفلسفة اليونانية ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ٠

(١٤٦) في الفقرة التي اوردها جومبرز ما يدفعنا الى الاخذ بفكرة ان الارستقراطية التي غلبت على روح اكاديمية افلاطون ، كان سببها أن جلّ المتعلمين الذين التحقوا بها كانوا من طبقة الاغنياء ممن سبق لهم دفع المبالغ الطائلة للتعلّم على آيدي السوفسطائيين فلم يتيسر للاكاديمية سوى ضم هؤلاء يضاف اليهم امراء وحكام اوربا الذين جاءوا لدراسة الفكر السياسي ونظم الحكم ٠

(١٤٧) أنظر :
W. Jaeger, Paideia, The Ideas of Greek Culture, Trans. by G. Highet, Oxford, 1939, Vol. I, p. 320-324.

(١٤٨) أنظر : Zeller, op. cit. p. 80 ff.

(١٤٩) أنظر المصدر السابق ص : ٧٧

(١٥٠) أنظر : Burnet, Greek Philo. p. 87-88.

(١٥١) يصف افلاطون في جمهوريته السوفسطائية (أنظر : الترجمة العربية الجيدة للدكتور فؤاد زكريا ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ فقرة/٤٩٣ ـ ٤٩٤) فيقول :

« ان كل هؤلاء الاشخاص الذين يتاجرون في العلم والذين يدعوهم الجمهور بالسوفسطائيين ويعدهم منافسين له ، لا يلقنون سوى المبادىء التي يدعو اليها الجمهور ذاته في اجتماعاته ، وهذا هو ما يسمونه بالحكمة ٠ وما اشبههم في ذلك برجل يربي وحشا ضخما قويا فيلاحظ بدقة حركاته الغريزية وشهواته ، ويعلم من اين يؤتى وكيف يعامل ، ومتى ولم يكون اشدّ شراسة أو أكثر وداعة ، وما معنى صيحاته المختلفة ، وما هي الاصوات التي تهدئه أو تثيره ٠ وبعد ان يعلم كل ذلك من طول معاشرته له ، يطلق على تجربته اسم الحكمة ، ويجعل منها مذهبا يعلمه لغيره ٠ ولما لم يكن يعلم أي هذه العادات والرغبات احسن وايها اقبح وايها صواب وايها خطأ ، وايها عادل أو ظالم فانه يطبق كل هذه الاوصاف

تبعا لرغبات الوحش الضخم ، فيسمي ما يسره وما يغضبه شرا ، وهو لا يعلم شيئا عن المعنى الحقيقي لهذه الالفاظ ، اذ ان اي شيء يتم وفقا للضرورة يسمى في نظره عادلا وجميلا ، ما دام عاجزا عن ان يتبين لنفسه أو يبين لغيره ذلك الفارق الاساسي بين ما هو ضروري وما هو خير ، الا يكون هذا الشخص مربيا غريبا حقا ؟ فهل ترى فارقا بين هذا الرجل وبين من يرى ان قوام الحكمة هو معرفة غرائز واهواء الكثرة عندما تجتمع سويا ، سواء فيما يتعلق بالتصوير والموسيقى والسياسة ؟ من المؤكد أن احدا لا يستطيع ان يتقدم الى حشد كهذا ليعرض عليه شعرا أو أي عمل فني آخر ، أو مشروعا ذا نفع عام ، ويخرج بذلك عن المسلك الطبيعي ليجعل من الجمهور سيدا له ، اقول ان احدا لا يستطيع ان يفعل ذلك الا واضطر بحكم الضرورة القاهرة الى ان يفعل ما يوافق عليه هذا الجمع ، ولكن هل سمعت قط اية حجة تقدم لاثبات ان ما يعجب به ذلك الجمهور جميل حقا ، أو ان ما يستحسنه خير حقا ، دون ان تكون هذه الحجة مدعاة للسخرية ! ..

(١٥٢) يحدثنا افلاطون بلسان سقراط عن بيع السوفسطائيين للمعرفة فيقول : « يجب ان تحرص ايها الصديق على نفسك كي لا يخدعنا السوفسطائي عندما يمتدح ما يبيع ، كحرصك ذاته مع تجار الجملة والمفرد الذين يبيعون غذاء البدن فكلهم يمتدح ما لديه من سلع دون تفرقة بين نافعها وضارها ، وكذلك نجد عملاؤهم .. اللهم الا اذا كان المشتري انسان ماهر أو طبيب حاذق ، وهكذا نجد يا صديقي حال اولئك الذين يجوبون المدن يبيعون سلعهم جملة وتجزئة لاي زبون هو في حاجة اليها ، وليس من الغريب اذا جهل كثير منهم تأثيرها على النفس كما يجهل ذلك حتى العملاء انفسهم !.. وعلى هذا فاذا كنت تفرّق عن فهم بين الشر والخير ، ففي قدرتك ان تشتري المعرفة منهم ، اما اذا كنت لا تفرّق هذه التفرقة فاحذر ايها الصديق ولا تخاطر بمصلحتك العزيزة عليك ، لانك في شراء المعرفة تخاطر بما لا يمكن مقارنته بشرائك اللحم أو الشراب مثلا ، فالاخيرة لا تتمثلها في جسمك مباشرة بل تحتفظ بها في امكنة معينة ، وقد تستشير عنها من يعرف من اصدقائك وعن اثرها على بدنك ، ولكنك حين تبتاع المعرفة فليس في استطاعتك ان تضعها خارجا عنك ، بل تتمثلها في نفسك ، سواء كانت كبيرة النفع أم كثيرة الضرر ، لذا يجب ان نستشير من هم أكبر منّا سنا لاننا لا نزال في يفاع الشباب !

أنظر :

Plato, Socratic Discoures, op. cit. 313, 314, p. 236-238

(١٥٣) انظر :

A. Taylor, The Man and his Work, London, 1952, p. 236.

يرى الاستاذ زيلر ان مولده كان عام ٤٨١ قبل الميلاد ووفاته عام ٤١١ ، وهو بذلك يخالف رأي برنت وتايلر ورسل بخصوص تاريخ مولده ·

قارن : Zeller, op. cit. p. 81.

(١٥٤) ومما يؤيد هذا الرأي وسلامته ان افلاطون يتحدث عن بروتاغوراس في محاورة مينون (ص ٩١) فيقول : انه توفي وقد ناهز السبعين من العمر بعد ان انفق أربعين عاما يزاول مهنته ، وتمتع خلال هذه الفترة بسمعة عظيمة لا يزال يتمتع بها حتى اليوم !

(١٥٥) أنظر : Burnet, Greek Philo. p. 92 ff.

(١٥٦) يقول الاستاذ ييجر ان عبارة افلاطون التي ترد في كتاب القوانين (Laws, IV, 716 C) بفحوى ان الله يجب ان يعتبر مقياس جميع الاشياء ، لا الانسان كما يدعي عوام الناس ـ كانت هذه العبارة موجهة في حقيقتها ضد بروتاغوراس بالذات ·

قارن : Jaeger, Arist. op. cit. p. 88

(١٥٧) أنظر : Arist. Met. B, 2. 998a

(١٥٨) من هؤلاء الباحثين الذين اختاروا النوع تفسيرا للفظة بدل الفرد هم زيلر وكومبرز والسيدة فريمان ·

(١٥٩) أنظر :

Russell, An Outline of Philosophy, p. 57

(١٦٠) قارن : يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٤٨ ·

(١٦١) انظر : محاورة غورغياس لافلاطون فقرة (٤٤٨ ـ ٤٥٤) ·

(١٦٢) من اشهر خطبــاء ذلك العصر هــم : انتيفون وليسياس واندوكيدس وايسقراط وايسابوس وهيبريوس وليكورجوس وايسخنيس وديموستين ودينارخوس وغيرهم ٠

(١٦٣) أنظر : Zeller, op. cit. p. 87.

(١٤٦) قارن المصدر السابق ، ص ٩٢ ٠

المصادر والمراجع

(١) الاجنبيـــة

1. Aristotle, The Oxford translation of Aristotle, Oxford, 1908-1952.
2. Armstrong, A. H. An Intorduction to Ancient Philosophy, London, 1965.
3. Bailey, C. The Greek Atomists and Epicuius, Oxford, 1926.
4. Benardete, J. A. Infinity, An Essay in Metaphysics, Oxford, 1964.
5. Boas, G. Rationalism in Greek Philosophy, Baltimore, 1961.
6. Burnet, J. Early Greek Philosophy, London, 1963.
7. Burnet, J. Greek Philosophy, London, 1968.
8. Finley, J. H. Four stages of Greek Thought, Oxford, 1965.
9. Frankfort, H. Myth and Reality, Harmon-Sworth, 1951.
10. Freeman, K. Ancilla to the Pre-Socratic Philosophers, Oxford, 1966.
11. Freeman, K. Companion to the Pre-Socratic Philosophers, Oxford, 1966.
12. Furley, D. J. Two Studies in the Greek Atomists, Princeton, New Jersey, 1967.

13. Heath, T. History of Mathematics, London, 1942.

14. Hick, R. Stoic and Epicurean, New York, 1962.

15. Jaeger, W. Aristotle, Oxford, 1962.

16. Jaeger, W. Paideia, The Ideas of Greek Culture, trans. by C. Highet, Oxford, 1939.

17. Jaeger, W. The Theology of the Early Greek Philosophers, Oxford. 1968.

18. Jebb, R. C. Homer, Glassgow, 1898.

19. Kirk, G., and The Pre-Socratic Philosophy, Cambridge, 1957. Raven, J.

19. Kirk, G., The Pre-Socratic Philosophy, Cambridge. 1957.

21. Norman De Witt, Epicurus and his Philosophy, Minneapolis, 1964.

22. Olmstead, A. T. History of Persia, Campridge, 1943.

23. Plato, The Dialogues of Plato, Trans. by B. Jowett, Oxford, 1953.

24. Plato, Pheado, Trans. by D. Stewart, Euphorion Books, London, (without date)

25. Randall, J. H. and Buchler, J. Philosophy, An Introduction, New York, 1942.

26. Rosenthal, M. and

Yudin, P. Dictionary of Philosophy, Moscow, 1967.

27. Ross, D. Aristotle, London, 1956.

28. Runes, D. Dictionary of Philosophy, New York, 1942.

29. Russell, B. An Outline of Philosophy, London, 1927.

30. Russell, B. Our Knowledge of External World, London, 1952.

31. Ryle, G. Dilemmas, Cambridge, 1966.

32. Samburshky, S. Physics of the Stoic, London, 1959.

33. Samburshky, S. The Physical World of the Greek, Trans. by M. Dagut, London, 1956.

34. Tarski, A. An Introduction to Logic, New York, 1954.

35. Taylor, A. The Man and His Work, Iondon, 1959.

36. Zeller, E. Outlines of the History of Greek Philosophy, Trans. by L. Palmer, London, 1955.

(٢) العربيـــة

(١) أحمد فؤاد الاهواني ـ فجر الفلسفة اليونانية ـ القاهرة ١٩٥٤ ٠

(٢) ارسطو ـ الطبيعة ـ ترجمة اسحق بن حنين مع شرح ابن السمح ، نشرها د٠ عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ٠

(٣) افلاطون ـ جمهورية افلاطون ، ترجمة د٠ فؤاد زكريا ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

(٤) رسل ـ تاريخ الفلسفة الغربية ـ ترجمة د٠ زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٥٧ ٠

(٥) زكي نجيب محمود ـ فلسفة وفن ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

(٦) سارتون ـ تاريخ العلم (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٥٧ ٠

(٧) شلموز بينس ـ مذهب الذرة عند المسلمين ـ ترجمة د٠ عبدالهادي أبو ريدة ـ القاهرة ١٩٤٦ ٠

(٨) فلوطرخس ـ الآراء الطبيعية التي ترضى بها الفلاسفة ، (ضمن مجموعة النفس لارسطو) نشرها د٠ عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٤ ٠

(٩) محمد صقر خفاجة ـ النقد الادبي عند اليونان ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

(١٠) الموسوعة الفلسفية المختصرة (الترجمة العربية) ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

(١١) هنري برجسون ـ منبعا الاخلاق والدين (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٤٥ ٠

(١٢) ول ديورانت ـ قصة الحضارة (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٤٩ ٠

(١٣) وولف ـ عرض تاريخي للفلسفة والعلم (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٣٦ ٠

(١٤) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ١٩٤٦ ٠

ثَبتُ الكُتابْ

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٦٣ لسنة ١٩٧١

٥٧/١٠٠٠/١٢/٢/١٩٧١